تاريخ العربية

تأليف

دكتور عبد الحسين محمد

دكتور رشيد عبد الرحمن

دكتور طارق عبد عون

تأريخ العربية

تأليف

الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي ــ استاذ مساعد / كلية التربية / جامعة بغداد
الدكتور عبد الحسين محمد الفتلي ــ استاذ مساعد / كلية التربية / جامعة بغداد
الدكتور طارقِ عبد عون الجنابي ــ مدرّس ــ كلية التربية / جامعة الموصل

PRINTED IN FRANCE BY SIMA-ROTOMAG - 77200 TORCY - (6) 006.33.63

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتاب في (تاريخ علوم اللغة العربيّة) وضعناه لطلبة السنة الثانية من قسم اللغة العربية بكليّة التربية ، على وفق مفردات المنهج ، آثرنا الجمع فيه بين التاريخ والتماس البحث العلمي عارضين احيانا لاختلاف الآراء ، خاصة في المدارس النحوية التي لم ينته القول فيها الى رأى حاسم ، ولكي نفسح للطلبة في مجال الموازنة والتحليل ، ثم النفوذ الى موقف ، أو اجتهاد .

ولم نشأ الاطالة في المصطلحات من باب البلاغة ؛ لأن درس البلاغة في السنتين الاولى والثانية كفيل بايضاحها إيضاحاً يغني عن التكرار ، مع قصر الزمن الذي يلزم استيفاء مفردات مادة (تاريخ علوم اللغة العربية) فيه ، وهو فصل واحد .

ولا ندّعي لعملنا هذا الكمال ، بل هو جهد بذلناه مخلصين ، ولعل زملاءنا سيُضفون عليه من علمهم ما يقرّبه الى المستوى الذي نأمله ونطمح اليه ..

ومن الله التوفيق

المؤلفون

الباب الأول

علم النحو

مفهوم اللحن

بدأ اللحن يسيرا اول الامر زمن الرسول « ص » فقد ذكر ابو الفتح ابن جني ان رجلا لحن بحضرة الرسول « ص » فقال : « ارشدوا أخاكم فقد ضل (١) » فعدّ لحن الرجل ضلالة لان الخطأ في الكلام قد يؤدي الى الخطأ في القرآن الكريم . وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن عساكر عن محمد بن القاسم الانبارى المتوفى « ٣٢٨ هـ » من ان اعرابيا قدم زمن عمر بن الخطاب فقال : من يقرئني مما انزل على نبيه « ص » فأقرأه رجل سورة براءة فقال « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بالجر ، فقال الاعرابي : أوقد برىء الله من رسوله ؟ ان يكن الله برىء من رسوله فأنا ابرأ منه . فبلغ عمر مقالة الاعرابي فدعاه فقال : يا اعرابي اتبرأ من رسول الله ؟ قال : يا امير المؤمنين ، اني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن فسألت من يقرئني فأقرأني هذا سورة براءة وقص عليه الخبر فعلّمه عمر ثم قال : لا يقرىء القرآن الّا عالم باللغة (٢) .

---

(١) الخصائص ٨/٢

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٠٨/٧

أو ما ذكره ابو البركات (١) من ان اعرابيا كان يقرأ « لا يأكله الا الخاطئين » من قوله تعالى « فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام الا من غسلين . لا يأكله الا الخاطئون (٢) » وكان اللحن معروفا بهذا المعنى . فقد روى عن رسول الله « ص » قوله : أنا من قريش ونشأت في بني سعد فأنى لي اللحن (٣) وكان الخليفة الاول يقول : لأن اقرأ فاسقط أحب اليّ من أن اقرأ فالحن (٤) .

وكان يقال : « اللحن في النطق اقبح من آثار الجدري في الوجه (٥) » .

وقال عبد الله بن مروان : « اللحن هجنة على الشريف والعجب آفة الرأى (٦) » .

وذكر ان عمر بن الخطاب مرّ على قوم يسيئون الرمي فقرعهم فقالوا : انا قوم متعلمين « فأعرض مغضبا وقال : والله لخطؤكم في لسانكم اشدّ عليّ من خطئكم في رميكم ، سمعت رسول الله « ص » يقول : رحم الله امرأ أصلح لسانه (٧) » .

وقال يحيى بن نوفل في خالد بن عبد الله القسري (٨) :

والحن الناس كل الناس قاطبة ‏ ‏ ‏ ‏ وكان يولع بالتشديق في الخطب

وكان أولو الامر لا يتسامحون في مسألة اللحن ، فقد ورد كتاب الى الخليفة عمر بن الخطاب أوله « من ابو موسى الاشعري » فكتب عمر لابي موسى بضرب الكاتب سوطا (٩) « وذكر ان عمر مرّ برجلين يرميان ، فقال احدهما للآخر : اسبت . فقال عمر : سوء اللحن اشد من سوء الرمي « فجعل ابدال الصاد سينا من اللحن (١٠) . »

وذكر الجاحظ انه ارتفع الى زياد رجل واخوه في ميراث ، فقال : ان ابونا مات وانّ اخينا وثب على مال أبانا فأكله « فأما زياد فقال : الذي اضعت من

---

(١) نزهة الالباء : ٣
(٢) الحاقة : ٣٦ .
(٣) وفيات الاعيان ٥/٩٩ ، والمزهر ٢/٣٩٧ .
(٤) وفيات الاعيان ٥/٩٩ .
(٥) البيان والتبيين ٢/٢١٦ .
(٦) البيان والتبيين ٢/٢١٦ .
(٧) وفيات الاعيان ٢/١٠٠
(٨) البيان والتبيين ٢/٢١٦
(٩) وفيات الاعيان ٥/٩٩ وانظر البيان والتبيين ٢/٢١٦ .
(١٠) التجارة : ٢٢٧

لسانك اضر عليك فما أمنعت من مالك (١) » . ولقد اصبح اللحن مذموما يثير اشمئزاز العلماء واهل اللغة . فقد ذكروا ان ابا عمرو بن العلاء مرّ بالبصرة فاذا اعدال مطروحة مكتوب عليها : « لأبو فلان » فقال : يا رب يلحنون ويرزقون (٢) » وان اعرابيا دخل السوق فسمعهم يلحنون فقال : « سبحان الله يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح (٣) » وسمع اعرابي مؤذنا يقول : اشهد ان محمدا رسولَ الله ، قال : يفعل ماذا (٤) ؟

وروى الجاحظ (٥) : أن اول لحن سمع بالبادية : « هذه عصاتي » بدلا من عصاي ، وأول لحن سمع بالعراق : « حيِّ على الفلاح » بكسر الياء بدلا فتحها . وكثر اللحن في العصر الاموي حتى تطرق الى البلغاء والخلفاء والامراء ، كالوليد بن عبد الملك ، والحجاج بن يوسف الثقفي وعبيد الله بن زياد .

قال ابن عساكر : ان معاوية احضر عبيد الله بن زياد ، فلما كلمه وجده لحانا فرده ، وكتب الى زياد كتابا يلومه في ابنه فأرسل زياد خلف ابي الاسود وقال : « ان هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب فلو صنعت شيئا يصلح به الناس كلامهم ويعربون كتاب الله (٦) » . واصبحت الناس تتعاير باللحن وكان مما يسقط الرجل في المجتمع أن يلحن حتى قال عبد الملك بن مراون وقد قيل له : اسرع اليك الشيب شيبني ارتقاء المنابر (٧) ، وكان عبد الملك يرى اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب النفيس (٨) . وكان يقول . : « ان الرجل يسألني الحاجة فتستجيب نفسي له بها ، فاذا لحن انصرفت نفسي عنها » . (٩)

واتخذ اللحن اشكالا مختلفة فقد زعم المدائني أن خالد بن عبد الله قال :

---

(١) البيان والتبيين ٢٢٢/٢ ، وعيون الاخبار ١٥٩/٢
(٢) انباء الرواة ٣١٩/٢ .
(٣) عيون الاخبار ١٥٩/٢
(٤) البيان والتبيين ٣٣٩/٢
(٥) البيان والتبيين ٢١٩/٢ .
(٦) تهذيب ابن عساكر ١١٠/٧ .
(٧) عيون الأخبار ١٥٧/٢ ــ ١٥٨
(٨) البيان والتبيين ٢١٦/٢ وعيون الاخبار ١٥٨/٢ .
(٩) رسالة الجاحظ في صناعة القواد : ٢٦٠ .

« ان كنتم رجبيون فانا رمضانيون (١) » ويذكر الجاحظ أن يوسف بن خالد السمتي كان يقول : « هذا احمر من هذا » يريد : « هذا اشد حمرة من هذا » (٢) .

وقال يوسف بن خالد ايضا لعمرو بن عبيد : ما تقول في دجاجة ذبحت من قفائها قال له عمرو : أحسن ، قال : من قفاؤها ، قال : أحسن ، قال : من قفاءها ، قال عمرو : « ما عنّاك بهذا . قل : من قفاها واسترح (٣) » وقال بشر بن مروان وعنده عمر بن عبد العزيز لغلام له : ادع لي صالحا ، فقال الغلام : يا صالحا ، فقال له بشر : الق منها الف ، قال له عمر : وانت فزد اليك الفا (٤) وقيل لابي حنيفة : ما تقول في رجل اخذ صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله ، أتقيده به ؟ قال : لا ولو ضرب رأسه بأبا قبيس (٥) ، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي على فصاحته يلحن في بعض الاحيان وهو الذي يقول فيه رؤبة وابو عمرو بن العلاء : انهما لم يريا قرويين افصح من الحسن والحجاج (٦) ، ومع هذا فان الحسن غلط في حرفين من القرآن الكريم مثل قوله : ص والقرآن « بضم النون ، والحرف الآخر « وما تنزلت به الشياطون (٧) » أما الحجاج فكان يقرأ « انا من المجرمون لمنتقمون » (٨) .

ويروى كذلك انه سأل يحيى بن يعمر الليثي : اتسمعني ألحن على المنبر ؟ فقال يحيى : الامير افصح الناس الا انه لم يكن يروي الشعر . قال : اتسمعني ألحن حرفا ؟ . قال : نعم في آي القرآن ، قال فذاك اشنع ، وما هو ، قال : تقول : قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها أحب اليكم من الله ورسوله تقرؤها أحب بالرفع ، فأنف الحجاج ان يطلع له رجل على لحن فبعث به الى خراسان (٩) » .

فهو قد الحن في هذه الآية مع كونه ذا باع طويل في العربية يدل على ذلك قول رؤبة وابي عمرو الآنف الذكر أو ما رواه ابن قتيبة من انه أمَّ قوما فقرأ :

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢١٦ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٢١٢ .
(٣)البيان والتبيين ٢/٢١٢ .
(٤) البيان والتبيين ٢/٢١١ .
(٥) البيان والتبيين ٢/٢١٢ .
(٦) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .
(٧) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .
(٨) البيان والتبيين ٢/٢١٨ .
(٩) طبقات النحويين : ٥

والعاديات ضبحا ـــ وقرأ في آخرها « أن ربهم بهم يومئذ لخبير بفتح همزة أنّ « ثم تنبه على اللام في « لخبير » وأن « ان » قبلها لا تكون الا مكسورة فحذف اللام من « لخبير » فقرأ : أنّ ربهم بهم يومئذ خبير » (١) .
وقصص اللحن كثيرة في كتب الاقدمين .

نقط المصحف

علامات الحركات ونقاط الحروف التي نجدها في الكتابة العربية سواء في المصاحف أم في الكتب مرت بمراحل حتى اخذت هذا الشكل .
اما استخدام النقاط لتمثيل الحركات فقد تم منذ وقت مبكر يرجع الى النصف الثاني من القرن الهجري الاول حيث قام العالم ابو الاسود الدؤلي المتوفى (٦٩ هـ) بوضع اساس طريقة استعمال النقط للحركات ، فقد روى أنه قال لكاتبه : خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد ، فاذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف واذا ضممتها فاجعل النقطة الى جانب الحرف ، واذا كسرتها فاجعل النقطة في اسفله ، فان اتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره ، وانتشرت هذه الطريقة في تمثيل الحركات ، واستمر العمل بها وحدها الى اواخر القرن الثاني الهجري عندما اقترح الخليل الحركات المعروفة اليوم حيث حلّت تدريجيا محل نظام النقط القديم وقد تم اختراع الخليل لعلامات الحركات ثم تنقيط الحروف المتشابهة في الصورة في اواخر القرن الهجري الاول على يد تلامذة ابي الاسود الدؤلي ، فقد قام نصر بن عاصم الليثي (٩٠ هـ) ويحيى ابن يعمر قبل (٩٠ هـ) بوضع النقاط على الحروف ازواجا وافرادا ، فوضعوا للباء واحدة من اسفل وللتاء اثنتين من اعلى وهكذا في بقية الحروف على ما نجده اليوم في كتاباتنا . (٢)

وبعد ان ابتكر نصر ويحيى طريقة تمييز الحروف المتشابهة بواسطة نقط الاعجام ظهرت مشكلة اختلاط نقاط الحركات بنقاط اعجام الحروف على الرغم من اختلاف لون كل منهما ، اذ ان نقاط الاعجام بلون الكتابة نفسها بينما نقاط الحركات بلون آخر ، وقد استطاع الخليل بن احمد (١٧٠ هـ) «ان يحل الاشكال حين جعل الحركات

---

(١) عيون الأخبار ١٥٨/٢
(٢) ما يقع فيه التصحيف والتحريف للعسكري /١٣ ، والتنبيه على حدوث التصحيف للاصفهاني /٢٧ .

حروفا صغيرة بدل النقط ، فالضمة واو صغيرة فوق الحرف والكسرة ياء صغيرة مردودة تحت الحرف والفتحة ألف مائلة فوق الحرف . ووضع الخليل اضافة الى الحركات علامات للهمزة والتشديد والروم والاشمام » (١) .

أولية النحو

أختلفت الآراء قديما وحديثا فيمن وضع اللبنة الاولى في النحو العربي . فقد جاء في رواية ان الامام علي بن ابي طالب هو واضع هذا العلم وذلك بسبب لحن سمعه أراد تقويمه ، فهداه تفكيره الى وضع أصول العربية (٢) .

ويقال : ان ابا الأسود الدؤلي هو الذي وضع اصول العربية وذلك حين اضطرب كلام العرب فغلبت السليقية ولم تكن نحوية ، فكان سراة الناس يلحنون ووجوه الناس ، فوضع باب الفاعل والمفعول به ، والمضاف ، وحروف الرفع والنصب ، والجر ، والجزم (٣) ، وقيل : ان عمل ابي الاسود كان باشارة من الامام علي (٤) أو من زياد بن ابيه (٥) ، أو من عبيد الله بن زياد (٦) .

وانكر رأي آخر على ابي الاسود هذا الصنيع ونسبه الى عيد الرحمن بن هرمز أو نصر بن عاصم الليثي (٧) ونسب الى ابي الاسود صنيع اخر غير وضع اصول العربية وهو نقط المصحف « أي وضع الشكل » لان المصاحف قبله ـــ كما تقدم ـــ كانت خالية من النقط مما ادى الى الخطأ في قراءة القرآن الكريم (٨) .

ولقد انكر الاستاذ ابراهيم مصطفى من المحدثين هذه الاقوال وعدها حديث خرافة وفسر نسبة القدماء وضع النحو لابي الاسود بالتوهم والخلط وذلك أن القدماء خلطوا بين نقط المصحف ووضع النحو ، وسبب الخلط أن ضبط الكلمات كان يسمى نحوا ، فظن القدماء الذين جاءوا بعده أنه وضع النحو بالمعنى الاصطلاحي المعروف . وقد جعل الاستاذ مصطفى كتب النحو المعروفة حكما في ذلك ، فوجد ان ايا منهم لم ينسب رأيا نحويا الى أبي الاسود فلو صحت الرواية التي تنسب وضع النحو اليه لوجدنا آراء له في الكتب النحوية المعروفة(٩) .

---

(١) المحكم للداني /٦ .
(٢) مراتب النحويين لابي الطيب : ٦ ، والفهرست : ٤٥ وانباه الرواة ٤/١ .
(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١٢/١ .
(٤) طبقات النحويين : ٢١ ، نزهة الالباء : ٥ .
(٥) نزهة الالباء : ٥ .
(٦) اخبار النحويين للسيرافي : ١٧ .
(٧) الفهرست : ٤٥ .
(٨) أخبار النحويين البصريين : ١٦ ، الفهرست : ٤٥ ، نزهة الالباء : ٩
(٩) مجلة كلية الآداب / جامعة فؤاد الأول / المجلد العاشر ٦٩/٢ .

وعلى مقولة الاستاذ ابراهيم مصطفى هذه يكون أول واضع للنحو هو اقدم نحوي تنسب اليه آراء نحوية . وقد وجد ان ابن ابي اسحق الحضرمي هو اقدم نحوي من هذا النوع .

والفيصل في هذه المسألة هو وضع تعريف محدد للعمل النحوي ، فان كان المقصود بالنحو وضع اصول متطورة بعض التطور فلا شك ان ابن ابي اسحاق هو الرائد الاول في هذا الميدان لما له من ذكاء وجهود في هذا المضمار .

اما اذا كان المقصود بالنحو مجرد وضع اصول اولية بدائية كرفع الفاعل ونصب المفعول فلا شك أن وضع النحو بهذا المعنى يرقى الى زمن سابق لابن ابي اسحاق اذ لا يعقل أن يكون ابن ابي اسحاق وحده هو الذي وضع النحو او الأصول الاولية ونماها بحيث يصل قسم من آرائه الى كتاب ناضج مثل كتاب سيبويه ، ولا بد من وجود جهد سابق له مهدت له الطريق وفتحت امامه السبل (١) .

قال الاستاذ احمد امين : « تاريخ النحو في منشئه غامض كل الغموض فانا نرى فجأة كتابا ضخما هو كتاب سيبويه ولا نرى قبله ما يصح أن يكون نواة تبين ما هو سنة طبيعية من نشوء وارتقاء . وكل ما ذكروه من هذا القبيل لا يشفي غليلا (٢) .

وعلق الدكتور مازن المبارك على هذا الرأي بقوله : والحق اننا اذا كنّا لا نستطيع أن ننكر بعض ما يشوب نشأة النحو في تأريخها الاول من الغموض بسبب ضياع حلقات هامة من آثار النحو الاولى وأخبارها فاننا لا نستطيع ايضا أن نقرّ بأن النحو ظهر فجأة في كتاب ضخم ناضج هو كتاب سيبويه ولا شك أن « الكتاب » ثمرة جهد سابق وعلم قطع مراحل ، ولكن لا بد لنا في سبيل معرفة النشأة الاولى للنحو العربي من العودة الى اقدم ما روي من اخبار الواضع الاول وسبب الوضع (٣) .

ومهما اختلفت الاخبار في سبب وضع النحو من قبل أبي الاسود أو من غيره فانها تتفق في أن اللحن هو السبب الرئيس ، قال الزبيدي : ولم تزل العرب تنطق على سجيتها من صدر اسلامها وماضي جاهليتها حتى اظهر الله الاسلام على سائر الاديان فدخل الناس فيه افواجا وأقبلوا عليه ارسالا واجتمعت فيه الالسنة المتفرقة واللغات المختلفة ففشا الفساد في العربية واستبان منها في الاعراب الذي هو حليها والموضح لمعانيها فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء الافهام

---

(١) انظر : يونس بن حبيب ، رسالة ماجستير : ٦

(٢) ضحى الاسلام ٢/٢٨٥

(٣) النحو العربي : ١٠

الناطقين من دخلاء الامم بغير التعارف من كلام العرب (١) . فعظم الاشفاق من نشوء اللحن وغلبته حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم الى أن سببوا الاسباب في تقعيدها لمن ضاعت عليه وتثقيفها لمن ضاعت منه ، وكان أول من أصل ذلك وأعمل فكره فيها ابو الاسود الدؤلي ظالم بن عمرو ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز ، فوضعوا للنحو ابوابا وأصّلوا له اصولا فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف . وكان لابي الاسود في ذلك فضل السبق وشرف التقدم ثم وصل ما أوصلوه في ذلك التابعون لهم والآخذون عنهم . فكان لكل واحد منهم من الفضل بحسب ما بسط من القول ومد من القياس وفتق من المعاني ، وأوضح من الدلائل وبيّن من العلل » . ولعل هذا يرجع الى العامل الديني في نشأة النحو العربي وذلك لحفظ القرآن الكريم من كل تحريف او لحن . فقد اهتم المسلمون اهتماما كبيرا بكتاب الله لانهم كانوا يرون فيه منقذا من الضلالة ومحققا لاهدافهم التي يسعون اليها . فهو الذي انتشل جموعهم من الجاهلية فأخذ بأيديهم حيث يشاركون في بناء الحضارة الانسانية فلم يعرف كتاب سماوي أحيط بالعناية والرعاية محفوظ على تراكيبه وكيفية ترتيبه بلهجاته مع اتقان وضبط لا نظير لهما .

وكانت جهود المسلمين في الحفاظ على القرآن الكريم منذ عهد الرسول « ص » حتى عهد عثمان بن عفان قد مرت بمراحل ثلاث : (٢) .

الاولى : تتجلى في امر الرسول «ص» اصحابه الا يكتبوا عنه سوى القرآن .

والثانية : تتجلى في جمع نصوصه في عهد أبي بكر الصديق وذلك باشارة من عمر بن الخطاب «رض» .

والثالثة : توحيد النص القرآني زمن عثمان بن عفان بعد أن رأى أولو الامر ما كان بين المسلمين من خلاف حوله وخافوا على المسلمين أن يتفرقوا شيعا واحزابا وعلى كتاب الله أن يناله تحريف .

كانت هذه المرحلة كفيلة بصون القرآن من التبديل لو أن العرب يتفشى اللحن في السنتهم باختلاطهم بغيرهم من الامم الاعجمية الأخرى . ولكن الامر قدر على غير ذلك فقد كثر الداخلون في الاسلام من غير العرب وأفسدوا من ألسن العرب ، ويرغب ابو الاسود الدؤلي في أن يضع شيئا يقوّم به كلام

---

(١) طبقات النحويين واللغويين : ١ ـــ ٢

(٢) محاضرة الدكتور عبد الفتاح شلبي في مؤتمر المفتشين عام ١٩٥٧ ص/٤٨ .

العرب ، وينشط ابو الاسود الى هذا العمل بعد أن يسمع رجلا يقرأ قوله تعالي : «ان الله بريء من المشركين ورسوله» بكسر اللام ويرى أن يبدأ باعراب القرآن الكريم .

وعمل ابي الاسود هذا يمثل المرحلة الرابعة لصيانة كتاب الله من التحريف ، مرحلة اعراب النص القرآني بوضع صبغ يخالف لون المداد ، كما تقدم .

ثم كانت المرحلة الاخيرة وهي اعجام النص القرآني ، هذه المرحلة تتصل اتصالا مباشرا بنشأة النحو والاعراب ثم هي ذات دلالة أخرى اذ تشير الى قيام مدرسة بجانب مدرسة القراءات هي مدرسة النحو والنحاة ، وكان زعيم هذه المدرسة ــ كما رأينا ــ أبا الاسود الدؤلي الذي نشأ في البصرة ، وكان تلامذته كذلك بصريين ، عنسبة الفيل وميمون الاقرن ونصر بن عاصم الليثي ، ويحيى بن يعمر ، وبقي النحو بصريا وظلت البصرة قائمة وحدها الى أن جاء عصر الخليل بن احمد شيخ الطبقة الثالثة من البصريين حيث اشتغل علماء الكوفة بالنحو وأولهم ابو جعفر الرواسي مؤسس المدرسة الكوفية ، وشيخ الطبقة الاولى من الكوفيين ، ويتتابع تلاميذ كل من ابي الاسود الدولي وأبي جعفر الرواسي على النحو الذي تذكره كتب الطبقات(١) .

ومهما اختلفت الروايات في ابي الاسود الدؤلي وصلته بأولية النحو وفي مقدار الاعمال التي نسبت اليه فانها لم تختلف في انه ليس من السهل تتبع تطورات النحو قبل عصر الخليل لعدم وصول آراء الدارسين للنحو ومؤلفاتهم الينا . وقد كانوا من القراء حتى عصر ابي عمرو بن العلاء وليس من المعقول أن يقرؤوا القرآن ويشتغلوا بالقراءات من دون أن يعرفوا شيئا من المبادىء العملية للنحو ، وهذا ما تدل عليه آراؤهم وملاحظاتهم المبعثرة العابرة حول آية قرآنية او بيت شعر ، فقد قرأ ابن هرمز : «بل ملة ابراهيم حنيفا» برفع «ملة» على انها خبر لمبتدأ محذوف ، اي بل الهدى ملة»(٢) .

وكان ابن ابي اسحق ينقد الفرزدق في قوله :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال الا مسحتا أو مجلف

فرأى أن «مجلف» في رفعه لا يناسب «مسحتا» في نصبه (٣) .

وسمع عيسى بن عمر بيت النابغة :

فبت كأنّي ساورتني ضئيلة ... من الرّقش في انيابها السم ناقع

---

(١) انظر اخبار النحويين للسيرافي : ١٦

(٢) انظر مجلة كلية الاداب ، العدد الأول لعام ١٩٥١

(٣) ضحى الاسلام : ٢٨٨/٢

فقال : قد أساء النابغة ، انما هو «ناقعا»[1] . فنصبها على الحال .

وقيل : ان الاتجاه الى جمع المسائل النحوية منفصلة عن العلوم الاخرى ظهر في عصر ابن ابي اسحق اذ تكلم عن الهمز وأملى كتابا فيه[2] . كما الف عيسى بن عمر كتابيه الجامع والاكمال . وكان معروفا منهما في عصر ابي العباس المبرد[3] بضعة اوراق وضعهما ابو الطيب اللغوي[4] بأنهما مبسوط ومختصر .. وقال فيهما الخليل :

ذهب النحو جميعا كله غيرما ألف عيسى بن عمر
ذاك اكمال وهذا جامع فهما للنـاس شمس وقمر

وربما كان هذا الخبر مصنوعا بدافع التعصب بين البصريين والكوفيين لكن قد يستشف منه وجود جهود كبيرة كان العلماء يبذلونها لاجل حفظ اللسان العربي من الزلل ووضع قواعد العربية وسننها الاولى على يد علمائها في القرنين الاول والثاني الهجريين . وكانت هذه الجهود تعد اساسا لاولائك الذين بنوا صرح العربية ووضعوا قوانينها فيما وصل الينا من مؤلفات زاخرة بالعلم والمعرفة يدل على ذلك كتاب سيبويه الذي يمثل قمة هذه الجهود في علوم العربية واستنباط قواعدها وقوانينها الثابتة حتى يومنا هذا .

المدارس النحويـة

لقد سبقت البصرة الى دراسة النحو العربي ، وكان طائفة الدارسين الاول الذين سبقوا الخليل بن احمد الفراهيدي ، قد اثروا الدرس النحو بجهود عريضة ، ثم جاء الخليل ليبني صرح النحو ، ويحدد له ملامحه وخطوطه ، ويضع له اسسه ، ويرسم حدوده وكان الخليل استاذ الدارسين ، وقد غشى حلقته طالبو العلم من امصار مختلفة ، وفدوا عليه ، يقبسون من علمه ، ويتزودون من منهجه ، ويتعلمون منه الكثير .

وكان من الوافدين على البصرة علي بن حمزة الكسائي المقرىء الكوفي ، وقد وجد عند الخليل علما غزيرا ، وعرف ان مصدر ذلك بوادي نجد والحجاز

(١) انباء الرواة : ١٧١/٢
(٢) معجم الأدباء : ١٤٧/١٦
(٣) الفهرست : ٦٢
(٤) طبقات الزبيدي : ٤١

فمضى يتصل بالاعراب ويأخذ عنهم حتى أنفذ قدرا كبيرا من الحبر ، وملأ صحائفه من اقوال الاعراب باختلاف القبائل .

وكان من الملازمين للخليل شاب نابه هو ابو بشر عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه ، وقدر له ان يصنف كتابا عظيما في علم العربية بناه على اقوال الخليل وآرائه وتأويلاته ، وزاد عليه اقوالا لعدد من علماء العربية الذين صحبهم او اخذ عنهم .

وقد اضحى كتاب سيبويه بعد ، مرجع الدارسين ، فلم يكن احدهم ليكون نحويا يعتد بعلمه حتى يقرأه على شيخ من شيوخ العصر .

وقد كان سيبويه رأس طائفة من الدارسين ، كانت البصرة موئلا لهم ، اختطوا لهم طريقة في النحو اختصوا بها .

وكان الكسائي رأس طائفة اخرى من النحاة ، كانت الكوفة موطنهم ، ثم اتخذ هو ومن تلاه بغداد مطمأنّاً لهم ، ومقاما ، لكن غلبت عليهم تسمية الكوفية ، وهؤلاء ايضا التزموا اسلوبا في الدرس شقوا به طريقا اخرى ، ومذهبا مختلفا .

وهكذا عرف الدارسون قديما مذهبين في النحو هما : المذهب البصري والمذهب الكوفي ، وراح اصحاب الطبقات والتراجم يؤكدون هذه المذهبية ، وانقسم النحاة طائفتين تنهجان طريقين متباينتين ، زاده التنافس السياسي بين البصرة والكوفة وقرب الكوفيين من الخلافة ورجال الدولة حدة في العصبية ، وحماسة في الحجاج والجدل ولقد تعارف الدارسون قدامى ومحدثين عل ان راس المدرسة البصرية هو الخليل ثم سيبويه ، غير ان الخلاف مايزال شديدا في المؤسس الحقيقي للمدرسة الكوفية ويذهب الدارسون في هذا الامر مذاهب شتى :

١ ـــ يذهب الدكتور مهدي المخزومي الى (ان الكسائي وتلميذه الفّراء هما المؤسسان الحقيقيان لهذه الدراسة ، اخذا نحو البصرة وغيرا فيه ، ونهجا في دراسته منهجا مستقلا ...)[١] ، وعنده ان الكسائي هو واضع اسس هذه المدرسة ، غير ان (الفراء قد تكفل باتمام البناء وتعهد المدرسة بالنمو ، واعاد النظر فيما جاء به الكسائي ، فاخذ منه ما يتفق

---

(١) مدرسة الكوفة ٧٤

مع طبيعة الدرس ، وبنى منهجا على اساس علمي جديد)[1] .

على ان المنطلق الاول لمؤسسي المذهبين ، كما يذهب اليه المخزومي هو مجالس الخليل واما ليه ، فقد تلمذ له سيبويه شيخ البصريين والكسائي شيخ الكوفيين وصار الخليل بذلك راى المدرستين النحويتين[2] .

ومصدر مادتها الاولى ، قبل اختلافهما في منهجين متباينين .[3]

٢ ــ غير ان الاقدمين ، وتابعهم جمهور من المحدثين ، يذهبون الى ان أبا جعفر الرواسي هو المؤسس الحقيقي لمدرسة الكوفة[4] . واضاف اخرون اليه معاذ بن مسلم الهراء .[5] وجرى على ذلك نفر من المحدثين .[6]

اما منطلق الاقدمين فهو وضعهم النحاة في طبقات ، فقد جعلوا كل طبقة كوفية بازاء طبقة بصرية ، وبذلك كان الرواسي ومعاذ من الكوفيين تجاه الخليل من البصريين ، وهكذا آل بهم الامر الى ادعاء ان الرواسي والهـواء كانا مؤسسي مدرسة الكوفة . واذا كان هذان الرجلان لم يؤلفا في النحو كتابا معروفا ، ولم تنقل لهم كتب النحو الامات والمختصرات رايا يعتد به ، فان ماجاز على الاقدمين لاينبغي ان يجوز على المحدثين فيضعون على راس مدرسة الكوفة رجالا ماكان لهم في مسائل النحو نظر ورأي معروف .

---

(١) نفسه ١٢٧

(٢) ينظر : مدرسة الكوفة ٧٩ ، الدرس النحوي في بغداد ٢١١

(٣) غيران الدكتور شوقي ضيف يرى ان الموجه للكسائي والفراء هو ابو الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش الاوسط ، في انشاء المذهب الكوفي ، اذ (روى عنه الكسائي امام الكوفةالاول كتاب سيبويه ، فهو الذي فتح له وللفراء ابواب الخلاف مع سيبويه والخليل على مصاريعها ...) المدارس النحوية ١٥٥ ، ١٥٦ وبذلك جعل شوقي ضيف الاخفش الاوسط الموجه الحقيقي لمدرسة الكوفة . وهذا الكلام واضح التهافت ، اذا عرفنا ان الاخفش الاوسط تلمذ سيبويه واخذ عنه كتابه وانه نزل بغداد ثارا لسيبويه بعدما اخفق في مناظرته الكسائي ، ثم كان من امره ان يصحب الكسائي وان يتابع الكوفيين في احدى وخمسين مسالة .

ينظر : منهج الاخفش الاوسط في الدراسة النحوية ٣٦٨ .

(٤) ينظر : مدرسة الكوفة ٧٧ المصادر والمناقشة .

(٥) نفسه

(٦) ينظر : تاريخ علوم اللغة ــ طه الراوي ١٢٣

الخصائص المذهبية

لقد كانت البيئة التي شهدت ظهور اوائل الدارسين الكوفيين : الكسائي والفراء ومن سبقهما ، وهي الكوفة ، بيئة الاقراء والحديث وكان هؤلاء النحاة قراء ، او كانوا معنيين بالقراءات ، وبرواية الحديث والشعر ، ولقد كان الكسائي احد القراء السبعة ، وهو ثالث ثلاثة منهم ضمتهم الكوفة ، والاخران : عاصم بن ابي النجود ، حمزة بن حبيب الزيات .

وقد عنى طائفة من الدارسين بالنحو ، ولكنها التزمت بمنهج القراء ، او اخذت به .

واما البصرة فكانت موئلا لتلاقح الثقافات المختلفة وقد شاعت فيها الفلسفة والمذاهب الكلامية ، وكان لذلك اثره فيما اخذ به رجال النحو من المذاهب ، فيما بعد .

واذا كانت مدرسة الرأي والقياس في الفقه قد نشأت ، وضربت بجذورها في اعماق الدرس ، فان النحاة الكوفيين ، قد تأثروا بها ، كما تأثر البصريون ، وان اختلفوا في حدود الالتزام به .

ومن هنا ، كان للبصريين مذهبهم الذي اتسم بخصائص تميزت عما اتسم به مذهب الكوفيين ، نجملها على الوجه الاتي :

أ ــ اصول البحث :

١ ــ التزم البصريون بالرواية الموثقة ، وكانوا يتشددون في فصاحة الرواة ، ولم يكن الكوفيون مبالغين في التوثيق .

٢ ــ عني البصريون والكوفيون بالقياس[١] غيران البصريين يقيسون على الشائع من كلام العرب ، على حين كان الكوفيون يقيسون على القليل والنادر والمفاريد ، قياسهم على الكثير ، وهم لايتحرجون ان يكسروا القاعدة او يوسعوا دائرتها فهم (لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شيء مخالف للاصول ، جعلوه اصلا ، وبوبوا عليه بخلاف البصريين [٢] .

---

(١) القياس : هو حمل غير المنقول على المنقول اذا كان معناه ، وبناء على هذا عرفوا النحو بانه (علم بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب) لينظر : لمع الادلة ٩٥ . الاقتراح والقياس في النحو (حمل فرع على اصل لعلة مشتركة بينهما . ويكاد يكون هو التعريف الفقهي . وقد طبقه الفقهاء) ينظر : ضحى الاسلام ١ ــ ٢٧٧ وكان ابو البركات الانبارى يرى (ان انكار القياس لايتحقق لان النحو كله قياس) لمع الادلة ٩٥ .

(٢) الاقتراح في علم اصول النحو ٢٠٢ ، ومخالفة الاصول ، هنا ، بناء على مادرج عليه المتأخرون المتابعون البصريين باطراد ، وهي اصول البصريين وليس هذا حجة .

وقد زعم طائفة من المتأخرين (ان البصريين أصح قياسا ، لانهم لا يلتفتون الى كل مسموع ولا يقيسون على الشاذ ، والكوفيون اوسع رواية .[1]

وقد غالى بعض الدارسين المحدثين حين زعم مضيا مع التخرصات على المذهب الكوفي «ان البصريين عنوا بالسماع وضبطوه ، واحترموه على حين زيفه الكوفيون وبلبلوه .[2] و (ان المذهب الكوفي لاهو مذهب سماع صحيح ولامذهب منظم .[3] »

ولعل ما اتفق عليه جمهور المحدثين من ان مذهب البصريين اساسه القياس ، ومذهب الكوفيين اساسه السماع .[4] وان البصريين والكوفيين جميعا يقيسون ، غير ان الكوفيين اوسع قياسا ، لعل هذا اقرب الى الحق والصواب .

٣ ــ ميل البصريين وخاصة المتأخرين الى (التأويلات البعيدة التي خالفها الظاهر)[5] وايغالهم في التعليل[6] ، تأثرا بالمنطق وعلم الكلام[7] ، وتحكيما للمقاييس العقلية .

اما الكوفيون فكانوا يعتمدون الرواية ، ويقتدون بالشواهد حجة ودليلا على ما يقولون على انه يجمل بنا ألا نغالي في هذا كثيرا ، فما فتىء النحاة الكوفيون يعللوا كما يعلل البصريون ، حتى آل الامر بتلامذة ثعلب الى ان يجاروا البصريين او يجاوزوهم احيانا ، اما اوائل الكوفيين الكسائي ، والفراء ، فكان اعتمادهم على النقل ابين من صيرورتهم الى التعليل في تقرير مسائل النحو حتى

---

(١) الاقتراح ٢٠١ ، ٢٠٢ ، والشاذ هو ماكان خارج القاعدة بناء على قياس البصريين .
ينظر : الخصائص ٩٦/١ ــ ١٠٠

(٢) في اصول النحو ــ سعيد الافغاني ١٩٩

(٣) نفسه ٢٠٠

(٤) ينظر : نظرات في اللغة والنحو ١١ ، ضحى الاسلام ٢٩٥/٢ . وقد زعم صاحب (نشاة النحو) ١٦٥ ان البصريين «يؤثرون السماع على القياس فلا يصيرون اليه الا إذا اعوزتهم الحاجة» وعلى هذا اجرى حياته واثاره ص ٣٧ .

(٥) الاقتراح ٢٠٨

(٦) وعلى هذا الفت كتب شتى في العلة ، منها : الايضاح في علل النحو للزجاجي .

(٧) قال ابن جني في الخصائص ٤٨/١ : (اعلم ان علل النحويين ــ وعني بذلك حذاقهم المتقنين ، لا الفافهم المستضعفين ــ اقرب الى علل المتكلمين منها الى علل المتفقهين .) .

ذهب باحث معاصر الى القول باقتراب الشقة بينهما .[١]

٤ ــ وقف البصريون بحذر شديد من القراءات ، وطعنوا على عدد منها ، وكان عليهم الا يتزمتوا في ذلك ، لان القراءات تمثّل لهجات مختلفة لاينبغي اهدارها أو انكارها ،أو ابطالها . أما الكوفيون فكانوا يستشهدون بالقراءات وينزلونها مكانا عليا في الدرس النحوي الاندورا .

وبناء على ماسلف ، يتضح لنا أن نزعة المذهب البصري نزعة عقلية فلسفية ، لم تراع اختلاف اللهجات ولم تنظر الى الظواهر اللغوية والصوتية نظرة مطمئنة ، وبذلك جعلوا القبائل التي يحتج بها معدودة محدودة ذكرها الفارابي في كتابه (الالفاظ والحروف) وهي : قريش ، وقيس ، وتميم ، وأسد ، وهذيل ، وبعض كنانه ، وبعض الطائيين[٢] .

ومن ثمة كان البصريون ينزلون عددا من القواعد مباديء اساسية ، يرجعون اليها كل مايخالفها بالتعليل العقلي ، ويرمون ما استعصى على التعليل بالشذوذ ، غير ان الكوفيين على الضد من ذلك ، لان مصدر القواعد الاصيل ، عندهم ، هو النقل ويعدون كل منقول صحيحا ، لان مدار الصحة ليس هو القاعدة ، وانما هو اللغة المحكية الموجودة وبهذا لم تكن عندهم قوالب لغوية محدودة ، ضيقة ، جامدة ، كما هو الشأن في تحجر القواعد وجمودها عند البصريين .

ومن هنا لم تكن للكوفيين ، مباديء اساسية ، وأصول مطردة ، وصار من شأنهم اجازة اي محظور في الاستعمال عند البصريين وعدّه ممكنا وصحيحا ، وسائغا مقبولا .

وبناء عليه ، انقسم الدرس النحوي عند البصريين الى قواعد ومخالفات على حين هو عند الكوفيين اصول وموافقات ، ليس بازائها مخالفات البتة .[٣]

---

(١) النحو العربي ــ نقد وبناء الدكتور ابراهيم السامرائي ٥٦ ٥٧ وقال : « اما الاقدمون ممن عنوا بتاريخ النحو وطبقات النحويين ، فقد استعملوا كلمة (مذهب) وكان المذهب يقوم على اختلافهم في هذه المادة النحوية من حيث الاحتجاج والاستدلال وما عدا هذا فهم متفقون ، ونبالغ اذا قلنا : ان اتفاقهم تجاوز هذا الامر الى ما هو اصل وجوهر . فاذا كنا نأخذ ــ نحن المحدثين على الاقدمين تمسكهم بالعامل فان ذلك ينصب على البصريين والكوفيين على السواء فقد قال البصريون بالعامل وتمسكوا به ، كما قال الكوفيون به وتمسكوا به وربما اختلفوا في ضبط هذا العامل وتعيينه في المسائل التي اختلفوا عليها » .

(٢) ينظر : المزهر ٢١١/١ .

(٣) ينظر : طريقة الكوفيين في ضوء كتاب الانصاف ــ كوتولد فايل ــ ترجمة عبد الحليم النجار .

ب ــ المصطلح :

وإذا ساغ لنا ان نعد الاختلاف في اسلوب الدرس فاصلا مهما بين الدارسين البصريين والكوفيين ، فينبغي ألا نغفل اختلافهم في المصطلح النحوي لاختلافهم في الدلالة الخاصة للمصطلح والحدود والتعريفات ، فتلك تنبيء عن تأثر هاتيك المصطلحات بالثقافة اللغوية او العقلية التي اخذ بها الدارسون السالكون سبيل البصريين او الكوفيين ، ومن ثمة كان جل المصطلحات التي ترددت في كتب البصريين الاوائل خاصة ماتجده في كتاب سيبويه فلقد وجدت سبيلها الى التالين من الاخذين بالمذهب البصري ، ومانجده في كتب الفراء ، نجده ايضا في كتب الذين نهجوا نهجا كوفيا غير اننا لانفصل فصلا قسريا بين مصطلحات البصريين والكوفيين على مدى الحقب نزولا الى المتأخرين ، فقد كان الدارسون المتأخرون مستفيدين ، وقد شاعت بينهم مصطلحات بصرية او كوفية ، وأن كانوا منحازين الى صف هؤلاء او صف اولئك ونضع فيما يأتي ثبتا بجملة من مصطلحاتهم تاركين تعرّف ماعداها بالرجوع الى المصادر التي سنذكرها في الهامش :

المصطلح البصري	المصطلح الكوفي المقابل
البدل	الترجمة
التمييز	التفسير
ضمير الفصل	العماد
الضمير	المكنى
ما ينصرف ومالاينصرف	مايجري ومالايجري
الظرف	المحل
اسم الفاعل	الفعل الدائم
الحرف	الاداة
النفي	الجحد
العطف	النسق
لاالنافية للجنس	لاالتبرئة
الجر	الخفض
وغيرها ...	

(١) ينظر في سائر المصطلحات ، مع تفصيلات اخرى : مدرسة الكوفة ٣٠٣ ــ ٣٢٥ ومقالة (المصطلح الكوفي) مجلة التربية والعلم ١٣/١ ــ ٥٤ ابو زكريا الفراء ٤٣٩ ــ ٤٥٤ .

شيوخ المدرسة البصرية

وضعت البصرة من غير ريب اولى غراس النحو العربي ، كما سبق ، وتعهدته بالرى حتى استقام على سوقه ، ونما ، اصولا وفروعا ، وكان اوائل الدارسين الذين احتفظت لهم كتب النحو الاولى بآراء واضحة ، عبد الله بن ابي اسحق الحضرمي ، وعيسى بن عمر الثقفي وابو عمر وبن العلاء ، هم الالى تعهدوا هذا الغرس ، ونظروا في اصوله الاولى ، من سماع وقياس ، وتعليل ، كما عنوا بالقراءات وهي ذات صلة متينة بالنحو وباللهجات ، وكان المؤرخون يقولون عن ابن ابي اسحق «وهو اول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل»[١] ويرون حين يوازنون بينه وبين عيسى ، وابي عمرو انه كان اشد تجريدا للقياس»[٢]. وانا لنجد طرفا من آراء هؤلاء منبثة في كتاب سيبويه ، وليس من مرادنا ان نقف طويلا معهم ، ولكن يلزم ان نقف في البدء عند اول نحوى ، وضع للنحو العربي اصوله ، وقعد قواعده ، وجعله علما واضح المعالم والسمات ، وليس من ريب في ان الخليل بن احمد الفراهيدي هو اول نحوي ، بالمعنى العلمي لهذا المصطلح .

من ثمة ندرك ان النحو العربي قد انتهى علما عربيا عند الخليل غير ان دارسين غربيين ،[٣] يدندنون بتأثر النحو العربي بالمنطق اليوناني تارة ، وبالنحو الهندي[٤] تارة اخرى ، وقد جاراهم على ذلك طائفة من الدارسين العرب ،[٥] معتقدين ان هذا الربط لون من البحث العلمي المجرّد وقد وقع الوهم لهؤلاء ولاولئك جميعا ، فقد كان منطق زعمهم هذا :

---

(١) طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام ، طبقات الزبيدي ٢٥ .

(٢) اخبار النحويين البصريين ٢٠ .

(٣) هم : الالماني MERT في كتابه (تاريخ صناعة النحو عند السريان) .
الفرنسي FleicH وبارتواد في (تاريخ الحضارة الاسلامية وتابعهما الهندي VERSTROTH في كتابه (العناصر اليونانية في الفكر اللساني العربي) زاعما تأثر النحو العربي بالنحو اليوناني ، لا بالمنطق اليوناني : ينظر نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه : مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ١٢٥/١ فما بعده وينظر : تاريخ الحضارة الاسلامية ٣٨ ، ٣٩ ، عبقري من البصرة ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) من القائلين به من العرب احمد امين في : ضحى الاسلام ٢٤٥/١ . والدكتور عبد الرحمن ايوب . ينظر : البحث اللغوي عند العرب ٢٣٥ ، ويرى الدكتور ايوب ان التأثير الهندي على كتاب سيبويه واضح في المنهج والتبويب .

(٥) منهم احمد امين ، اذ زعم ان تأثير اليونان والسريان في العصر الاول في النحو ضئيل ولما نقلت الفلسفة تأثر النحو بذلك في قواعده ، وعلله . ضحى الاسلام ٢٩٤/٢ وقرر الدكتور حسن عون « ان اول تقسيم لها في النحو العربي كان متأثرا بما وضعه ارسطو وان سيبويه وربما اساتذته كالخليل وابن عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ويونس بن حبيب قد ارتضى هذا التقسيم مكتفيا به في كتابه العظيم « مجلة المجلة » العدد ٩/١٥٨ ــ ١٠

١ ـ ان القياس ، وهو اصل من اصول النحو العربي ، مستمد من القياس المنطقي .

٢ ـ وان تقسيم الكلمة عند سيبويه الى : اسم وفعل وحرف ، يشبه تقسيم الكلمة عند ارسطو الى اسم وفعل وأداة .

٣ ـ وان النحاة العرب قد اتصلوا بالمنطق اليوناني ، عن طريق مترجمات السريان من اليونانية الى العربية .

٤ ـ وان عددا من السريان قد تلمذ للنحاة العرب الاوائل ، من شاكلة تلمذة حنين بن اسحق للخليل بن احمد ، كما زعم بعض الباحثين .(١)

وهذا الزعم ، واضح التهافت جملة وتفصيلا ، لما يأتي :

١ ـ ان القياس الفقهي الذي صدر عنه القياس النحوي قد سبق اتصال العرب ، بالثقافات الاجنبية وخاصة اليونانية من زمن غير قصير .

٢ ـ وان الاتفاق في تقسيم الكلمة في العربية وتقسيمها في اليونانية محض توافق غير مقصود وهو لايقوم دليلا قويا على التطابق او التشابه ، لان كتاب سيبويه وهو الكتاب الاول في علم العربية تزدحم فيه مصطلحات كثيرة ،(٢) ليس بينها وبين مصطلحات المنطق اليوناني تطابق البتة ، وانه لعجب حقا ان تحمل هذه الكثرة الكاثرة من المصطلحات على التوافق في مصطلحين اثنين فقط ، هما : الاسم والفعل ، فضلا عن الاختلاف بين مدلولي مصطلح الاداة ومصطلح الحرف وهو (العنصر الذي قصر عن الدلالة على المعنى بنفسه)(٣) على حين ان اداة في المنطق تدل على الاسم والفعل والحرف . اما تقسيم الكلام في النحو اليوناني فمختلف جدا ، اذ قسم النحاة اليونان الكلام على ثمانية اقسام ، على ما اورده ارسطو في كتابه الشعر ، وهي الحرف ، والمجموع ، الرباط ، الفاصلة ، الاسم ، الكلمة ، الوقعة ، القول(٤)

---

(١) ينظر : مقالة الدكتور ابراهيم بيومي مدكور (منطق ارسطو والنحو العربي) ورد الدكتور مهدي المخزومي (الخليل بن احمد الفراهيدي ٦٢ فما بعدها) .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ١/١٣٥ وقد وجد الباحث المستشرق الفرنسي جيرار تروبو ان عددها الف وثماني مئة وعشرون مفردة .

(٣) الخليل بن احمد ٦٤ .

(٤) مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ١/١٢٦ .

٣ ــ وان حنين بن اسحق ، قد ولد بعد وفاة الخليل ، فقد كانت وفاة الخليل عام ١٧٥ ه على ابعد الاقوال ، على حين كانت ولادة حنين عام ١٩٤ ه

٤ ــ وان حنين بن اسحق قد وضع كتابا في النحو العربي على غرار النحو اليوناني سماه (كتاب احكام الاعراب على مذهب اليونانيين) .(١) ولو كان النحو العربي قد افاد من نحو اليونان لما كان ثمّ مسوغ لصنيع حنين ، للفرق الكبير بين النحوين من جهة وبين النحو العربي والنحو السرياني من جهة اخرى ، باعتراف النحاة انفسهم

٥ ــ وان ترجمة العلوم اليونانية ، والمنطق اليوناني ، على نحو متواصل ومؤثر قد تلت عهد الخليل في اصح المذاهب .(٢)

٦ ــ وان كتب التراجم لم تذكر شيئا عن معرفة الخليل باليونانية او اتصاله بها ، بل المحت الى جهله بها(٣) .

أما ادعاء تأثر النحو العربي بالنحو السرياني ،(٤) فهو مدفوع ايضا بأن التفكير بوضع قواعد النحو السرياني قد تحال في اخلاد الباحثين السريان خشية انتشار العربية في العراق والشام وكان ذلك موازيا للخطوات الاولى في وضع النحو العربي ، ومن ثمة ذهب بعض المستشرقين(٥) الى تأثر السريان بالنحو العربي وذهب غيره(٦) الى نشوء نحو السريان ونحو العرب في وقت واحد(٧) فضلا عن التباين الشديد بين النحوين(٨) .

وليس ببعيد ان يكون هنالك لون من التشابه بين قواعد العربية والسريانية ، وسائر اللغات التي تنتمي الى الارومة السامية ، ولهذا احتفظتا بعناصر التماثل في

---

(١) ينظر : مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ١٢٣/١ .
(٢) ينظر : الخليل ابن احمد ٦٥ .
(٣) ينظر : الخليل ابن احمد ٦٥ .
(٣) ينظر : طبقات النحويين واللغويين ٤٧ .
(٤) قال به جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ١٠٥/١ والدكتور انيس فريحة .
(٥) هو المستشرق ليتمان .
(٦) هو المستشرق كب .
(٧) ينظر المفصل في قواعد اللغة السريانية وآدابها ٦ ، والخليل بن احمد ٦٤ .
(٨) مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ١٣٣/١ . ينظر في عرض هذه الآراء : تجديد النحو العربي ١٣ ــ ١٩ .

كثير من الوجوه(١) وقد وضع عبرانيون اندلسيون دراسات مقارنة بين النحوين العربي والعبري منهم ابو ابراهيم بن بارون السفرادي(٢) .

ان هذه الدعاوي الباطلة التي تنكر على العقل العربي اصالته ، وقدرته على الابتكار والابداع زيف وبهرجة تزعم لنفسها (الموضوعية) ، ولكنها تنفث سما زعافا ، يبغي وصم العقل العربي النشيط ، بالخمول ، وتجريده من القدرة على النظر ، والتدقيق ، والتنظيم العلمي وملاك القول : ان النحو العربي نشأ عربيا صرفا ، ثم درج وارتقى ، فتأثر في مجرى تطوره فيما بعد ، بتطور الحياة العقلية ، وكثرة ما ترجم عن الأمم الأخرى ، وتفتّق المذاهب الفلسفية ، وعناية العرب بالعلوم ، فكان ان داخله شيء من علم المنطق ، والفقه ، واصوله غير يسير .

لقد كان العقل العربي الخصب الدؤوب ممثلا بالخليل بن احمد الفراهيدي ت ١٧٥ هـ) لانه استنبط علم العروض ، ووضع اول معجم عربي بناه على مخارج الحروف وهو عمل علمي ضخم ، اقره على علم اللغة الحديث ، بسبب من نظره الى اصوات اللغة ، لا رموزها وهو مؤصل علم النحو غير منازع .

فقد كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه(٣) وكان الخليل ذكيا فطنا شاعرا ، واستنبط من العروض ومن علل النحو ما لم يستنبط احد ، وما لم يسبقه الى مثله سابق(٤) .

اما عن خلقه ، وحبه للعلم ، وشغفه به ، فانه المثال الفذ ، الذي كان الزمان ضنينا بمثله .

---

(١) غير انا لا ننفي افادة النحاة الذين عاصروا نشاط حركة الترجمة من اليونانية الى العربية والذين تلوهم ، بالفلسفة والمنطق اليونانيين ، وتأثرهم ، كما تأثر غيرهم من الكلاميين والمناطقة والفلاسفة ، لما نراه من الصنعة العقلية ، والايغال في الجدل ، والرياضة الذهنية ، وان العرب لم يغلقوا الابواب دون معارف الامم الاخرى فقد افادوا وطوروا واضافوا حتى ازدهرت الحياة العقلية ازدهارا عظيما . ينظر مجلة (المجلة) العدد ١٦٢/ص ١٧ .
ولمناقشة آراء المستشرقين وسواهم ينظر : عبقري من البصرة ٩١ فما بعدها والبحث اللغوي عند العرب ٢٣٢ فما بعدها .

(٢) ترجم قطعا منه الدكتور خالد اسماعيل علي .

(٣) اخبار النحويين البصريين ٣٠ .

(٤) طبقات النحويين واللغويين ٢٣ .

قيل : اجتمع الخليل ةعبد الله بن المقفع (فتذاكرا ليلة تامة ، فلما افترقا سئل ابن المقفع عن الخليل ، فقال : رأيت رجلا عقله اكبر من علمه ...)(١) .

واجتمع اهل البلدان بفاخرون بعلمائهم ، حتى ذكر الخليل ، «فلم يبق احدا الا قال : الخليل اذكى العرب . وهو مفتاح العلوم ومصرفها»(٢) .

وعدّ الخليل «سيد أهل الأدب قاطبة في علمه وزهده ، والغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله»(٣) .

يبدأ الدرس النحوي عند العرب ، منهجا ومضمونا ، عند الخليل ، واذا كانَ الخليل لم يدع لنا كتابا في النحو فتبين فيه خصائص نحوه ، وطريقته ، فإن (كتاب سيبويه) ، كان موضوعا على ممليات الخليل ، وأقواله ، واجاباته ، وتعليلاته ، حتى لا تكاد تمر صفحة ، الا طالع الباحث فيها الخليل باضاءات من ارائه ، وتوجيهاته ، قال السيرافي : (وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل ، وكل ما قاله سيبويه : (وسألته) ، او ، قال من غير ان يذكر قائله ، فهو الخليل .)(٤)

واذا كان الخليل قد أخذ عن علماء العربية المرموقين ممن سبقه ، كعيسى بن عمر وابي عمرو بن العلاء ، فقد فاقهم جميعا ، وقصر عنه من حاول اللحاق به من معاصريه او الاتين من بعده ، ومهما يقل في الانتقاص من علم الخليل ، ورجاحة عقله ، وثقوب نظره وقدرته على الاستنباط والموازنة ، فهو افتراء محض وافتيات على الحق .

ان النحو العربي قد استقام عند الخليل علما لغويا مصطبغا بالنظر العقلي فقد كان ذهن الخليل خصبا ، ومن هنا كان يسمع من العرب ، ويحسن الاستماع ويجمع ويحيط الاحاطة كلها ، ولكنه يعود الى هذا المجموع بالموازنة والتحليل والتعليل ، والقياس على النظائر ، حتى استتب للنحو قانونه العام ، مستخدما طريق الاستقراء من دراسة الجزئيات الى وضع القوانين .

على انه ينبغي لنا ان نفرق بين النظر اللغوي العقلي ، وبين النظر المنطقي الفلسفي الذي تأثر بعد الخليل بالعلوم التي شاعت فيما تلا من احقاب ، وهي

---

(١) طبقات اللغويين والنحويين ٤٥
(٢) طبقات مراتب النحويين ٥٥
(٣) نزهة الالباء ٤٥ ، ٤٦
(٤) اخبار النحويين البصريين ٣١

نبراس رقى العقل العربي ، وتطور الحياة الثقافية في المجتمع العربي[١] انذاك .
وإذا كان الخليل معلّلا ، فان تعليلاته كانت ترمي الى الايضاح والتبيين ، وهو ما سمّوه بالعلل الاولى ، او العلل التعليمية ، وهي علل لغوية يحتاج اليها النحو[٢] .

وذكر ابو القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧ ه) عن شيخ له ان الخليل سئل عن العلل التي يعتلّ بها لمسائل النحو ، (فقيل له : عن العرب اخذتها ام اخترعتها من نفسك فقال : ان العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقام في عقولها علله ، وان لم ينقل ذلك عنها ، واعتللت انا بما عندي انه علة لما علّلته به)[٣]

وضرب بذلك مثلا دارا اتقن بناؤها ، ودخلها رجل حكيم ، فتصور لبنائها علة لعلها تشاكل علة بانيها ، او تخالفها .

ومهما يكن من شيء ، فلو سار النحاة التالون على ما مضى عليه الخليل من هذا الضرب من التعليل لكان النحو عندهم غير مآل اليه ، ولكنهم اغلقوا على الدرس عندهم برتاج المنطق الفلسفي الصوري ، وهو غير المنطق اللغوي فجنح منهم جمع عن طريق الاصابة في الدرس كما سنرى شيئا من ذلك بعد .

يونس بن حبيب (ت ١٨٣ هـ)

وكان يعاصر الخليل ، اخذ عن أبي عمرو بن العلاء ، واخذ عنه علماء البصريين سيبويه والكسائي علي بن حمزة ، والفراء يحيى بن زياد . وقد أفاد من الاعراب ، وكانت له حلقة ينتابها شداة العلم . وله مذاهب ، وآراء ، واقيسة في النحو يتفرد بها[٤] اورد سيبويه طرفا منها ، حتى ذهب بعض الباحثين الى انه يشاطر الخليل في تكوين الشخصية لسيبويه في الكتاب[٥] ، وفي هذه المقالة لون من المبالغة .

من آرائه في الكتاب :

١ ــ ان نصب (وحد) محمول على (عند) ، فكأنه محمول على الظرفية ، وقاسه الخليل على : (مررت به خصوصا) .

---

(١) ينظر : تجديد النحو العربي ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٢) ينظر : النحو العربي ، العلة النحوية ، نشأتها وتطورها ٥٤ ، ٥٧ .
(٣) الايضاح في علل النحو ٦٥ ، ٦٦ .
(٤) ينظر : اخبار النحويين البصريين ٢٧ ، نزهة الالباء ٤٩ .
(٥) ينظر : تجديد النحو العربي ١٤٤ .

سيبويه ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠ هـ)

اخذ النحو عن عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب ، والخليل بن احمد ، ولازم الخليل واكثر الاخذ عنه ، وكان فتى المعيا ، نابها ، حسن الاخذ والافادة ، قيل : كان يستملي الحديث على حماد بن سلمة ، «فقال حماد يوما : قال صلى الله عليه وسلم : «ليس احد من اصحابي الاوقد اخذت عليه ليس ابا الدرداء» ، فقال سيبويه : (ليس ابو الدرداء) فقال له حماد : لحنت ، (ليس أبا الدرداء) ، فقال سيبويه : لاجرم لاطلبن علما لاتلحنني فيه ابدا ، وطلب النحو .»[١] ولزم الخليل ، حتى برع .

صنف سيبويه (الكتاب)[٢] ، وهو اول كتاب في علم العرب جامع محيط ، زخر باقوال الخليل ويونس ، وآراء لعبد الله بن أبي اسحاق ، وعيسى بن عمر ، (وأبي عمرو ، والاخفش الاكبر ، وشمل النحو والتصريف والاصوات ، وسواها مع غزارة الاستشهاد بالشعر والقرآن ، والحديث واقوال العرب بصيغ نحو :

(وسمع عن العرب) او (وسمعنا بعض العرب) او (وسمعنا ناسا من العرب يقولون) ... وقد يميل الى التماس التوفيق ، فيقول : وسمعنا بعض العرب الموثوق ، به» او : (وسمعت الثقة من العرب يقول).. وسواه .

وكتاب سيبويه ، فيه كثير من التدبر والتدقيق والملاحظة ولهذا كان ابو عمر الجرمي يقول : (انا مذ ثلاثون افتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه)[٣] .

وقد زعم مدعون ان «الكتاب» انما هو كتاب «الجامع» لعيسى بن عمر بسطه سيبويه وحشاه باقوال الخليل وغيره .

وهذا الكلام زيف واضح ، لأن ما ورد فيه من اقوال عيسى نزر ، وكانت اقوال الخليل حشو الكتاب وتفصيله[٤] .

---

(١) نزهة الالباء ٦١ .

(٢) يرى علي النجدي ناصف ان سيبويه لم يسم مؤلفه ، ولم يضع عليه عنوانا ، لانه كان في نفسه شيء منه وقد أرجأ النظر فيه على نية الرجوع اليه ، وان كثيرا من معاصريه لم يعلموا شيئا عنه على ان العلماء هم الذين اطلقوا عليه اسم الكتاب (ينظر : سيبويه امام النحاة ١٢٣ ، ١٢٤) .

(٣) طبقات النحويين واللغويين ٧٧ .

(٤) ينظر : عبقري من البصرة ٨٠ .

وقد عجب معاصرو سيبويه منه ، فقد ولد الكتاب فجأة على غير مثال سابق ، فحين تناهى نبأ الكتاب الى يونس بن حبيب ظن به الكذب ، «فقيل له : قد روى عنك اشياء فانظر فيها فنظر ، فقال صدق في جميع ما قال[1] .

وقد صار الكتاب عمدة الدارسين ، فكانوا يقرؤونه على احد شيوخ النحو ، فاذا تخرج به الدارس عدّ في النحاة ، وكان ابو العباس محمد بن يزيد المبرد يقول لمن يريد ان يقرأ عليه : «هل ركبت البحر : تعظيما لكتاب سيبويه واستصعابا لما فيه»[2] ، وكان ابو عثمان المازني يقول : من اراد ان يعمل كتابا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح .»[3]

ولم يكن الكتاب مرجع الدارسين البصريين حسب ، بل صار مرجع الدارسين جميعا على مختلف المذاهب والامصار ، ومايزال . ومن ثمة كثرت التعليقات والشروح عليه وشرحت شواهده وابنيته[4] .

وكان طريق الكتاب الى الدارسين هو ابو الحسن سعيد بن مسعدة ، الاخفش الاوسط تلميذ سيبويه . وان كان أسن منه ،

الاخفش الاوسط (ت ٢٠٨ ه او ٢١١ هـ او ٢١٥ هـ)

كان الاخفش أول من نقل الكتاب عن سيبويه ، وكان ملما بمشكلاته ، ودقائقه وقد ذكروا انه كان يستحسن الكتاب كثيرا ، فتوهم ابو عمر الجرمي وابو عثمان المازني ان الاخفش يهم ان يدعي الكتاب لنفسه ، فقرآه عليه لقاء مبلغ من المال ، فاظهرا الكتاب[5] .

ونقل عن المبرد انه كان احفظ ثلاثة اخذوا عن سيبويه هو والناشيء وقطرب[6] .

---

(١) اخبار النحويين البصريين ٣٧ ، نزهة الالباء ٦٢ .
ينظر في هذا المجال كتاب : سيبويه امام النحاة لعلي النجدي ناصف .

(٢) نزهة الالباء : ٦٣

(٣) النزهة ٦٢ .

(٤) ينظر : كتاب سيبويه وشروحه ١٤٩ ــ ٢٧٩ ، فقد فصّلت المؤلفة فيها القول .

(٥) معجم الادباء ٢٢٥/١١ ، ٢٢٦ . وينظر : مراتب النحويين ٣٩ .

(٦) قطرب هو ابو علي محمد بن المستنير (ت ٢٠٦ هـ) ، وكان ملازما سيبويه ويقال : سماه سيبويه بقطرب ، لانه كان يخرج فيراه ملازما بابه في الاسحار (فقال له : انما انت قطرب ليل) ، والقطرب دويّة صغيرة . ينظر : مراتب النحويين ٣٨ .

وكان الاخفش واسع العلم باللغة والنحو والقراءات ، وكان الكوفيون يفضلونه[1] . لعل مردّ ذلك الى ان الاخفش قد اتصل بالكسائي ، بعد أن يمم وجهه شطر بغداد ليثأر لاستاذه سيبويه بعد اخفاقه في مناظرة الكسائي ، وجرت بين الاخفش والكسائي مساءلات غلب فيها الاخفش جميعا ، فكان ذلك فاتحة صعبة دامت طويلا[2] ، وقد جارى الكوفيين بعد ذلك في احدى وخمسين مسألة[3] .

له من التصانيف : الاشتقاق ، المسائل الكبير ، المسائل الصغير ، الاوسط في النحو ، القوافي[4] ، العروض ، معاني القرآن[5] ، وغيرها[6]

ابو عثمان المازني* : (بكر بن محمد بن بقية (٢٣٦ هـ) او (٢٤٨ هـ او ٢٤٩ هـ)

كان اكثر نحويي البصرة في عصره شهرة ، قرأ كتاب سيبويه هو وأبو عمر الجرمي على الاخفش الاوسط ، وكان اعلم الرجلين ، وروى اللغة والقراءات عن : ابي عبيدة معمر بن المثنى ، وعبد الملك بن قريب الاصمعي ، وأبي زيد الانصارى ، وقد بلغ صيته المتوكل فالواثق ، في سامراء ، فطلبا ان يشخص اليهما[7] ، روى عنه الفضل بن محمد اليزيدي وابو العباس محمد بن يزيد المبرد .

نجم بين الدارسين نحويا مقتدرا ، وبز ، من عاصره وله مع نحاة الكوفيين والبصريين مناظرات تدل على فطنة ، وذكاء حاد ، في الحجاج والجدل[8] .

والمازني رجل عقل وقياس ، ومن ثم كانت آراؤه موضع تشبث البصريين

---

(١) ينظر : اخبار النحويين البصريين ٤٠ ، ووفيات الاعيان ٣٨١/٢ .

(٢) ينظر : معجم الادباء ٢٢٨/١١ .

(٣) ينظر : منهج الاخفش الاوسط في الدراسة النحوية ٣٦٨ ولعل هذا كان منطلق الدكتور شوقي ضيف في عد الاخفش موجه الكوفيين ، لانه قلب المسألة فجعل الكوفيين تابعين لا متبوعين ، كما مرّ .

(٤) حققه الدكتور عزة حسن ، ونشره في دمشق ، ثم حققه احمد راتب النفاخ ونشره في بيروت .

(٥) حققه الدكتور عبد الامير الورد ، ونال به الدكتوراه .

(٦) ينظر : معجم الادباء ٢٣٠/١١ ، وفيات الاعيان ٣٨١/٢ .

(*) ينظر في ترجمته وآرائه كتاب : ابو عثمان المازني ، ومذاهبه في الصرف والنحو رشيد عبد الرحمن العبيدي .

(٧) اخبار النحويين البصريين ٥٧ ــ ٥٩

(٨) ينظر : طبقات النحويين واللغويين معجم الادباء ١٠٨/٧ ، ٩٤ ، ٩٥

لانها تمثل آراءهم وتصوّر منهجهم[1] .

من مصنفاته : ماتلحن فيه العامة ، وكتاب الالف اللام ، والتصريف[2] والعروض والقوافي والديباج[3] وتفاسير كتاب سيبوبه ، وعلل النحو[4] .

ابو العباس محمد بن يزيد المبرد (٢١٠ هـ ـــ ٢٨٥ هـ)[5]

اخذ المبرد النحو عن الجرمي والمازني وابي عثمان الاشناداني وابي حاتم السجستاني[6] قرأ كتاب سيبويه على المازني حتى ختمه[7] ، وكان يعوّل عليه ، وعرف بغزارة الرواية من غير اسناد وقد برع في اللغة والنحو ، وكان عذب المنطق حاذقا في توجيه مسائل النحو مع غزارة الادب ، وبراعة البيان ، ووضوح الشرح[8] .

وقد روى انه كان وهو حديث السن ، متصدرا مجلس شيخه المازني يقرأ كتاب سيبويه ، والمازني كأحد من في المجلس .

وقد سار ذكره في الامصار حتى بلغ سامراء ، فطلب المتوكل ان يزعج اليه ليفصل في مسأله من القرآن شجر فيها خلاف وكان آنذاك فتى ، وقد فصل فيها ، ببراعة ، وحسن تخلص[9] .

ولما قتل المتوكل في سامراء قدم المبرد بغداد غريبا عنها وكان يومذاك موئل النحاة الكوفيين لايزاحمهم فيها أحد ، وقد استطاع ببراعته في المحاورة وتخريج المسائل ان يزحزح الكوفيين عن مواضعهم ، ويصير ندا لابي العباس احمد بن يحيى ثعلب شيخ الكوفيين ، ويكون هذا فاتحة صراع لايفتر بين المبرد البصري ، وتلامذته ، وبين ثعلب الكوفي وتلامذته ، ويشتد اوار المناقشة ، التي كثيرا ماالجتها هيمنة الغيرة والعصبية حتى طغت على الجانب العلمي .

---

(١) ينظر : ابو عثمان المازني ١٧٤ .

(٢) وقد شرحه ابن جني بكتاب سماه المنصف (طبع في ثلاثة اجزاء) .

(٣) وفيات الاعيان ٢٨٣/١ .

(٤) معجم الادباء ١٢٢/٧ .

(٥) وفي : مراتب النحويين انه توفي سنة ٢٨٢ هـ والاول اشهر .

(٦) نزهة الالباء ٢١٨ .

(٧) وفي نزهة الالباء ٢١٨ : انه بدأ بقرائته على الجرمي ، وختمه على المازني .

(٨) طبقات النحويين واللغويين ١٠٨ .

(٩) نفسه ١٠٩ ، ١١٠ .

ومن ثمة كان يصرف النظر عن ذكر الكوفيين في كتبه ، حتى انه لم يذكرهم في المقتضب ألا مرة واحدة وكنى عنهم مرات قليلة ب (قوم من النحويين) او (بعض النحويين)[١] .

وقد اجتمع الرجلان اكثر من مرة للمناظرة وكان المبرّد يفل حجج ثعلب بالجدل المنطقي لان ثعلبا كان يعمد الى الشواهد ، من غير ان يعزز مذاهبه بالحوار وتقليب الكلام . ومن ثمة خلب المبرد ألباب عدد من تلامذة ثعلب فبارحوه الى مجلس المبرد يلازمونه ويأخذون عنه : منهم ابراهيم بن السرّى الزجاج[٢] ، وابو علي الدينوري ختن ثعلب .

صنف المبرد كتبا جليلة النفع منها : الكامل في اللغة والادب[٣] ، والمقتضب[٤] في النحو . والفاضل والمفضول[٥] وما اختلف لفظه واتفق معناه في القرآن الكريم[٦] والمذكر والمؤنث[٧] ، والتعازي والمراثي[٨] وسواها[٩] .

وقد نقد المبرد سيبويه في مواضع من الكتاب ، سماها مسائل الغلط وقد رجع المبرد عن عدد منها في (المقتضب) وردّ عليه ابن ولّاد في كتاب (الانتصار لسيبويه من المبرد[١٠]) .

قال الازهري ، وهو يذكره مقرونا بثعلب (وأجمع اهل هذه الصناعة من العراقيين انهما كانا عالمي عصرهما ، وان احمد بن يحيى ثعلبا كان واحد عصره وكان محمد بن يزيد اعذب الرجلين بيانا ، واحفظهما للشعر المحدث ، والنادرة الطريفة ، والاخبار الفصيحة وكان محمد أعلم الناس بمذاهب البصريين في النحو ومقاييسه[١١] .

---

(١) المقتضب ٣٦٧/٢ ، ١٤٦/٣ ... وينظر : مقدمة المحقق ١١٥ .
(٢) قال الزجاج : (لما قدم المبرد بغداد جئت لاناظره وكنت اقرأ على أبي العباس ثعلب فعزمت على اعناته فلما فاتحني الجمني بالحجة ، وطالبني بالعلة ، والزمني الزامات لم اهتد اليها ، فتيقنت فضله واسترجعت عقله وأخذت في ملازمته) . نزهة الالباء ٢٢٥ . وينظر طبقات النحويين واللغويين (ط ١) ١١٨ ، ١١٩ .
(٣) طبع أكثر من مرة .
(٤) نشر في اربعة مجلدات بتحقيق محمد عبد الخالق عضيمة في القاهرة .
(٥) نشره عبد العزيز الميمني باسم (الفاضل) .
(٦) نشره الميمني في القاهرة .
(٧) نشره الدكتور رمضان عبد التواب وصلاح الدين الهادي في القاهرة .
(٨) نشره محمد الديباجي في دمشق .
(٩) الفهرست (ط مصر) ٩٤ .
(١٠) ينظر : مقدمة محقق المقتضب ٨٩ ـــ ٩٥ . منه نسخة في المتحف العراقي .
(١١) تهذيب اللغة ٢٧/١ .

تلامذة المبـرد :

وهكذا شهدت بيئة بغداد لقاء علميا بين استاذي النحو : المبرد البصري وثعلب الكوفي ، وكان لكل تلامذته ومريدوه يغشون مجلسه ، لايفارقونه وبين هؤلاء واولئك دارسون متحررون ، لايتقيدون بمجلس ، ولايتابعون الا بمقدار .

وكان في هذا نفع للعربية عظيم جدا فقد مخض التناقش العلمي زبدة النحو وسائر العلوم العربية فكثر طالبو العلم وتشعب التأليف والتصنيف ، وغنيت اللغة العربية بعلمائها غناءا كبيرا .

ومن اجل استكمال ملامح الصورة المذهبية للدارسين الذين غبروا على مذاهب البصريين يجمل بنا أن نذكر الطائفة المرموقة منهم :

١ ــ ابو بكر محمد بن السرى المعروف بابن السراج (ت ٣١٦ هـ)

كان نحويا مبرزا ، وعد من تلامذة المبرد ، واليه كانت الرئاسة بعده ، واخذ عنه ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي ، وابو سعيد السيرافي ، وابو على الفارسي ، وعلي بن عيسى الرماني[١] .

صنف كتبا منها الاشتقاق[٢] ، والموجز في النحو[٣] ، وشرح كتاب سيبويه واحتجاج القراء ، والجمل وسواها ، واحسنها واكبرها كتاب (الاصول)[٤] احكم الجمع فيه بين مسائل كتاب سيبويه ، ومقتضب المبرد ، وعوّل على مسائل الاخفش وضبط اصول النحو حتى قيل فيه : (مازال النحو مجنونا حتى عقله ابن السراج باصوله)[٥]

٢ ــ ابو اسحاق ابراهيم بن السرى الزجاج (ت ٣١١ هـ)

كان من اكثر النحاة لصوقا بالمبرد ، ولزوما له لانه كان مشغوفا بالنحو وقد

---

(١) نزهة الالباء ٢٤٩ ، معجم الادباء ١٨/١٩٨ .
(٢) حققه محمد صالح التكريتي ونشر في بغداد .
(٣) حققه مصطفى الشويمي ونشر في بيروت .
(٤) حققه الدكتور عبد الحسين الفتلي ، نشر جزء منه في النجف وجزء آخر في بغداد والثالث ينتظر .
(٥) معجم الادباء ١٨/١٩٨ .

كان كوفيا من اتباع ثعلب ثم لحق بالمبرد[1] ، وصار رأسا في البصريين شديد التمسك بمذاهبهم تلمذ له طائفة منهم : عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي[2] وابو على الفارسي

له من الكتب : معاني القرآن[3] ، الاشتقاق ، القوافي ، فعلت وأفعلت[4] ماينصرف وما لاينصرف[5] ، شرح ابيات سيبويه ، النوادر ، خلق الانسان[6] .

وهو في كتبه بصرى المنزع ، وان كان يشير احيانا الى مذاهب الكوفيين[7] ولكن موقفه المتشدّد من القراءات ، ومتابعته آراء البصريّين : سيبويه والمبرد ، يضعه في صف البصريين الخلصاء .

٣ ــ ابو بكر محمد بن علي العسكري المعروف ب (مبرمان) (ت ٣٤٥ هـ)

اخذ عن المبرد ، والزجاج ، وصنّف : شرح كتاب سيبويه وشرح شواهد سيبويه ، والنحو المجموع على العلل ، والتلقين في النحو ، وسواها[8] .

رجال المدرسة الكوفية

انتهينا ــ فيما مضى ــ الى ان مدرسة الكوفة تبدأ بالكسائي علي بن حمزة (ت ١٨٣ هـ) ، وان السابقين : ابا جعفر الرواسي ومعاذ الهراء ، ليسا مؤصلين ولكنهما كانا معلّمين ، ودراسة النحو على الاسس التي ذكرناها في بيان خصائص ، المذهبين : البصري والكوفي ، قد استقامت على يد الكسائي والفراء ، لان الاول كانت له آراء نحوية واضحة التزم فيها بحدود ، واصول ، منحها بعد ذلك تلميذه الفراء غاية وضوحها ، من قياس على اللغات كلها ،

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ١١٨ ، ١١٩ ، وزعموا انه كان خراطا للزجاج ، ثم احب النحو ، فكان اول ما درسه على المبرد . (ينظر : معجم الادباء ١٣١/١ . وليس بثابت ، فهو اقدم اصحاب المبرد ، ولكنه اتصل به وقد بلغ من العلم مبلغا (ينظر : الهامش في ترجمة المبرد) وكان من يريد ان يقرأ على المبرد يعرض عليه اولا (الفهرست ، مصر) ٩٦ .

(٢) سمي الزجاجي ، لملازمة الزجّاج ، فنسب اليه .

(٣) حققه عبد الحفيظ شلبي ، باسم : معاني القرآن واعرابه ، ونشر في القاهرة .

(٤) نشره محمد عبد المنعم خفاجي ضمن (فصيح ثعلب والشروح التي عليه) .

(٥) نشرته هدى قراعة .

(٦) نشره الدكتور ابراهيم السامرائي ضمن (رسائل في اللغة) وينظر : الفهرست ٩٧ (ط مصر) .

(٧) ينظر في تحقيق بصرية الزجاج كتاب : الزجاج حياته وآثاره ومذهبه في النحو ص ١٢١ فما بعدها .

(٨) ينظر : الفهرست (ط مصر) ٩٥ ، ومعجم الادباء ٢٥٧/١٨ .

واعتداد بالقراءات ، وأطراح للتعليل الفلسفي المعقّد ، وقد صيّر الكسائي مصطلحات اختلفت عن مصطلحات البصريين ثم تلاه الفراء ، فاقر منها عددا وزاد عليها كثيرا ، حتى كانت مصطلحات الكوفيين من البيان والكثرة بحيث كانت بازاء مصطلحات البصريين ، كما مرّ بنا .

بيد ان البصريين المتعصبين منهم كانوا يرون في اصطناع الكوفيين لهذه المصطلحات ضربا من المناكدة ، والرغبة في المخالفة ، ليس فيها شيء من العلم .

قام ابو حاتم السجستاني ، وهو يغمز الفراء : «ويتحفّظ احدهم مسائل من النحو بلا علل ، ولاتفسير ، فيكثر كلامه عند من يختلف اليه ، وانماهم احدهم اذا سبق الى العلم ان يسير اسما يخترعه لينسب اليه ، فيسمى الجرّ خفضا والظرف صفه ، ويسمّون حروف الجر حروف الصفات ، والعطف النسق ومفاعيلن في العروض فعولاتن ، ونحو هذا من التخليط[1] »

وتحدّث ابو الطيب اللغوي عن الكوفيين بعد هبوطهم بغداد ، وشيوع مذهبهم فيها ، ومتابعة الناس اياهم فقال : « ورغب الناس في الروايات الشاذة ، وتفاخروا ، بالنوادر ، وتباهوا بالترخيصات ، وتركوا الاصول ، واعتمدوا على الفروع ، فاختلط »[2]

من هذين النصين نتبين خصائص المذهب الكوفي ، التي اشرنا اليها ، وفصّلنا القول فيها .

على بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩هـ او ١٩٣هـ)

كنا قد عرفنا الحافز على طلب سيبويه علم العربية ، وهو انه لحن في حلقة حمّاد بن سلمه ، وقد وقع مثل هذا للكسائي ، فكان له حافزا مثلما كان لمعاصره سيبويه البصرى ، قيل : دخل الكسائي على جماعة يتحدثون ، وكان قد نهكه التعب فقال : عييت ، فقالوا : أتجالسنا وانت تلحن ، اذا اردت من التعب فقل : اعييت .

ومضي الرجل الى ابي جعفر الرواسي ، ومعاذ الهراء ، وما كان ما عندهما براو ظمأه الى العلم ، فانطلق الى البصرة ، ليجلس الى الخليل ، ويقبس من

---

(١) مراتب النحويين ١٦٠ ، ١٦١
(٢) نفسه ١٤٤

علمه ، وقد دهش لما وجده عنده ، فسأله عن مصدر علمه ، فقال له الخليل : بوادي الحجاز ونجد وتهامة ، فانطلق الى تلك البوادى بجمع من الاعراب ، حتى استقر في الواحة قدر جليل من لغات العرب . حتى قيل عنه : انفذ خمس عشرة قنينة حبر غير ماحفظ .

وعاد الى البصرة ليجلس الى الخليل فوجده قد مات ، فاتصل بيونس بن حبيب ، واقرّ له يونس بمسائل جادله فيها[١] .

وهكذا جمع الكسائي الى منهج القراء المعتمد على النقل والرواية ، علما بلغات العرب اخذ عن فصحائهم ، وعلما بالعربية ثقفة من علماء البصريين المقدمين[٢]

كان الكسائي يحتج بالسماع ، ولايعلل ، سأله يونس : لم صارت (حتى) تنصب الافعال ؟ فاجابه : هكذا خلقت[٣] .

وقد عد في الفصحاء ، الذين كانت الفصاحة فيهم سجية ، وسليقة ، حتى لم يكن يفطن اليه أنه يعرب[٤] .

وكانت له قراءة خالف بها قراءة استاذه حمزة بن حبيب الزيات ، لكنه اقره عليها . وهكذا كان الكسائي راسم المذهب الكوفي . ثم تعهّده بعده تلميذه (الفراء)

يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)

كان اخص تلامذة الكسائي ، اخذ العربية والقراءات عنه ، ثم اتصل بعلماء البصرة واخذ عن يونس ، وكان مولده ونشأته في الكوفة ، ثم حين بلغ مبلغ الرجال ، وبرع في العربية ، اجتذبته بغداد اليها ، وفيها صنف كتبا ، واملى اخرى .

ويعدّ الفراء مؤصل المذهب الكوفي ، وموجّهه ، وموطىء طريقه للدارسين فالاراء النحوية المنسوبة الى جمهور الكوفيين ، هي آراؤه ، ومصطلحات

---

(١) معجم الادباء ١٣/١٦٩ .

(٢) وكان هؤلاء من القبائل التي كانت بظاهر الكوفة او منها ، مع القبائل التي اتصل بها في البادية فقد قال له احد الاعراب حين أقبل على الخليل : « تركت أسد الكوفة وتميمها وعندها الفصاحة وجئت الى البصرة » معجم الادباء ١٣/١٦٩ .

(٣) طبقات الزبيدي ١٣٩ غير ان أبا منصور الازهري يزعم انه كان مولعا بالعلل والاعراب ينظر : تهذيب اللغة ١/١٦ ، ١٧

(٤) طبقات الزبيدي ١٤١

الكوفيين الشائعة هي مصطلحاته ، وكان هؤلاء الدارسون يحتجون بارائه ، ويعدّها كثير من الكوفيين المتعصبين صوابا محضا ، وهم يوازنون بها اقوال البصريين ، من ذلك ماروى عن ثعلب انه قال : «لولا الفراء ماكانت عربية ، لانه حصّنها ، وضبطها ، ولولا الفراء لسقطت العربية ، لانها كانت تنازع ، ويدعيها كلّ من اراد ، ويتكلم الناس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم ، فتذهب »[1] .

وقال ثعلب في موضع اخر ، موازنا ، وعارضا للمذهب الكوفي : « العرب تخرج الاعراب على اللفظ دون المعاني ، ولايفسد الاعراب المعنى ، فاذا كان الاعراب يفسد المعنى فليس من كلام العرب ، وانه صحّ قول الفراء[2] ، لانه عمل العربية والنحو على كلام العرب ، فقال : كل مسألة وافق اعرابها معناها فهو الصحيح ، وانما لحق سيبويه الغلط ، لانه عمل كلام العرب ، على المعاني ، وخلّى عن الالفاظ ، ولم يوجد في كلام العرب ، ولااشعار الفحول الا المعنى فيه مطبق الاعراب ، والاعراب مطبّق للمعنى ، ومانقله هشام[3] عن الكسائي فلا مطعن فيه ، وماقاسه فقد لحقه الغمز ، لانه سلك بعض سبيل سيبويه ، فعمل العربية على المعاني ، وترك الالفاظ ، والفراء حمل العربية على الالفاظ والمعاني فبرع ، واستحق التقدمة ، وذلك قوله : «مات زيد» فلو عاملت المعنى لوجب ان تقول : «مات زيدا» ، لان الله هو الذي اماته ولكنك عاملت اللفظ ، فاردت : سكنت حركات زيد)[4] .

وهذان النصان يبينان احسن بيان خصائص المذهب الكوفي الذي استقام عند الفراء متكاملا واضح السمات[5] ، وهو ـــ عند الازهري ـــ ثقة مأمون[6] .

---

(١) طبقات الزبيدي ١٤٤ ، وينظر تكملة النص ، ونص آخر في ١٤٣ لانهما يوضحان خصائص المذهب الكوفي خير ايضاح . وينظر : معجم الادباء ١١/٢٠ .
(٢) ينظر في قول الفراء ص ١٤٣ ، قبل هذه العبارة .
(٣) هشام بن معاوية الكوفي .
(٤) طبقات الزبيدي ١٤٣ ، ١٤٤ .
(٥) يذهب الدكتور احمد مكي الانصاري الى ان اثر يونس بن حبيب البصري في الفراء اوضح من اثر الكسائي ، والفراء قد نظر في كتاب سيبويه وانعم فيه النظر ، وبهذا عدّه مع اعترافه ، بمخالفة البصريين الواضحة في الرأي والمصطلح ، عده مؤسس مذهب جديد هو المذهب البغدادي . ينظر : ابو زكريا الفراء ٣٧٢ فما بعدها . وهنا نتساءل بدهش : من الكوفيون اذن ؟
(٦) ينظر : تهذيب اللغة ١٨/١ .

وكان يقال : الفراء امير المؤمنين في النحو[1] .

غير ان الفراء كان بارعا في الجدل ، لميل منه الى الاعتزال وعلم الكلام[2]
وقد اخذ الفراء عن طائفة من الاعراب الفصحاء كأبي الاحوص ، وأبي ثروان العكلي غير ما أخذ عن الرواسي ، والكسائي ، ويونس .

وأخذ عنه طائفة من اللغويين : سلمة بن عاصم ، وأبو عبدالله الطوال وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وسواهم ، ليس فيهم نحوي مبرز .

صنف الفراء كتبا شتى ، منها : الحدود ، وقد وضعه صادعا بامر المأمون في تأليف كتاب «يجمع فيه اصول النحو ، وما سمع من العرب»[3] . وهيأ له اسباب العمل ، ووكل به من يعنيه ، ويسعى في مطاليبه . واملى بعد ذلك «معاني القران»[4] على تلميذيه محمد بن الجهم السمري ، وسلمة بن عاصم .

ومنها : المذكر والمؤنث[5] ، والمقصور والممدود[6] ، واللغات والوقف والابتداء ، وسواها[7] .

ثعلب أحمد بن يحنى (ت ٢٩١هـ)

لم يكن ثعلب قد اخذ عن نحوى معروف ، اذ بينه وبين الفراء جيل من الدارسين كلّهم لغوى ، راوية ، ياخذ النحو نهلا ، ولهذا عول ثعلب وهو بعد في شرخ الشباب ، على كتب الكسائي والفراء ، فحفظها حفظا وادمن النظر فيها ، وكان يعمل باقوالها ويحتج ، من غير اعتبار للقياس او التعليل[8] وقيل : «كان ثعلب من الحفظ والعلم وصدق اللهجة والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم ومعرفة النحو على مذهب الكوفيين على ماليس عليه أحد[9] » .

وكان راوية ثقة ، لم يختلف في ذلك كوفي ، ولابصري[10] .

---

(١) معجم الادباء ١٣/٢٠ .
(٢) وفيات الاعيان ، وينظر : ابو زكريا الفراء ٣٣٨ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ فما بعدها .
(٣) معجم الادباء١٢/٢٠ ، ينظر : الفهرست (ط مصر) ١٠٦ في باب هذه الحدود .
(٤) طبع بتحقيق محمد علي النجار في ثلاثة اجزاء .
(٥) نشره مصطفى الزرقا في حلب ، ثم نشره رمضان عبد التواب في القاهرة .
(٦) نشره عبد العزيز الميمني الراجكوتي في القاهرة باسم « المنقوص والممدود » .
(٧) الفهرست ١٠٦ (ط مصر) وينظر : تهذيب اللغة ١٨/١ ، ومعجم الادباء ١٤/٢٠ .
(٨) طبقات النحوين واللغويين (ط ١) ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٩) نفسه ١٥٥ .
(١٠) ينظر : مراتب النحويين ١٥٢ .

وقد روي عنه انه بدأ النظر في كتاب «الحدود» للفراء وسنه ثماني عشرة وانه أتم النظر فيه بعد سبع سنوات ، وقد حفظ مسائله ، وعرف مواضعها من الكتاب[١]

واذا لم يدع لنا كتابا خاصا في النحو ، فانه قد ترك لنا طائفة من شروح ، دواوين الشعراء[٢] ومجالسه[٣] ، تنبث في اثنائها آراؤه في النحو ، وطريقته التي تنأى عن المنطق والعلة ، وتعتمد على النقل والرواية ، وكتابه «الفصيح»[٤] ، أشهر من ان يعرف به .

ويعد ثعلب ، بلا ريب ، آخر حلقة في سلسلة النحاة الكوفيين الملتزمين بمذهبهم النحوي ، على مارسمنا ، وقد مر بنا شيء من صلته بالمبرد .

تلمذ لثعلب طائفة من النحاة واللغويين ، المتعصبين للكوفيين الاوائل : الكسائي والفراء فثعلب والمتابعين ابدا لارائهم ، غير انهم كانوا يختلفون عنهم ، لانهم مالوا الى التعليل والجدل جريا في التيار الذي انساق فيه النحاة في بغداد رغبة في فل حجج الخصوم ، وابتغاء الغلبة والانتصار .

من هؤلاء التلامذة : ابو عمر الزاهد ، وأبو موسى الحامض ، وابو بكر محمد بن القاسم بن بشار الانباري ، والاخير اهمهم ، واكثرهم اثرا وتصنيفا .

ابو بكر بن الانبارى (ت ٣٢٨هـ)

يعد ابن الانبارى اخر نحوى كوفي معروف بالعلم وبالحماسة للكوفيين ، وقد شهد البيئة العلمية التي ثار فيها الجدل بين تلامذة المبرد وتلامذة ثعلب ، وشيوخه كلهم كوفي ، لم يأخذ عن بصرى البتة ، وان كان نقل عن البصريين ، خاصة اللغويين منهم ، كأبي عمرو بن العلاء ، والاصمعي ، وابي حاتم السجستاني ، في مصنفاته . صنّف كتبا مهمة ، زعموا انه املاها ، منها : شرح

---

(١) طبقات الزبيدي ١٦٣ .

(٢) ينظر : الفهرست ١١ ، ومعجم الادباء ٢/١٤٤ .

(٣) حققها عبد السلام هارون ونشرها في جزئين . وينظر : الفهرست ١١١ ، ومعجم الادباء ٢/١٤٤ .

(٤) ينظر : فصيح ثعلب والشروح التي عليه لمحمد عبد المنعم خفاجي ، ومقدمة تصحيح الفصيح لعبدالله الجبوري .

(٥) حققه عبد السلام هارون ونشره في القاهرة .

القصائد السبع الطوال ، والاضداد[1] ، وايضاح الوقف والابتداء[2] والمذكر والمؤنث[3] ، والزاهر في مغاني كلام الناس[4] ، الكافي في النحو ، الواضح في النحو ، غريب الحديث وسواها[5] .

درس على ابيه القاسم بن بشار الانبارى ، وعلى ثعلب ، وكان شديد ، المتابعة لمشيخة الكوفيين : الكسائي ، والفراء ، وثعلب . من ذلك قوله في الكسائي : «اجتمعت في الكسائي امور : كان أعلم الناس بالنحو ، وأوحدهم في الغريب ، وكان اوحد الناس في القرآن .»[6] .

وقال في الكسائي والفراء : «لو لم يكن لاهل بغداد والكوفة من علماء العربية الا الكسائي والفراء ، لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس اذ انتهت العلوم اليهما[7]

وقال عن ثعلب : «نظر ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب في النحو ، وله ثماني عشرة سنة ، وصنف الكتب وله ثلاث وعشرون سنة ، وكان ثقة صدوقا حافظا للغة عالما بالمعاني»[8] .

ومن تعصبه للمذهب الكوفي انه كان يرى رأى الفراء وثعلب ، لايفارقهما وهو يعتقد صحة مذاهب الكوفيين ابدا ، لانها صواب محض عنده ، وينكر على البصريين آراءهم ، لانها خطأ محض عنده .

ولكنه ، مع ذلك ، كان يتوسل باساليب البصريين في الحجاج والمحاكمة والجدل ، ولطالما غالى في التعليل ، وتقليب الكلام على وجوهه ، نصرة لمذهبه من ذلك ماذكره الزجاجي في مسألة ، جرت بينه وبين ابي بكر بن

---

(١) نشره هوتسما في المانيا ، والشنقيطي في القاهرة ، ومحمد ابو الفضل ابراهيم في الكويت ١٩٦٠

(٢) نشره محيي الدين رمضان في دمشق

(٣) حققه الدكتور طارق الجنابي ، ونشرته وزارة الاوقاف في بغداد

(٤) حققه الدكتور حاتم الضامن

(٥) ينظر : الفهرست ١١٨

(٦) غاية النهاية في طبقات القراء ٥٣٨/١

(٧) معجم الادباء ١٣/٢٠

(٨) طبقات النحويين واللغويين (ط ١) ١٥٥

الانبارى في المصدر ، بالغ بن الانبارى في التعليل لها[1] ، ثم ذكرها الزجاجي «ماجرى لابي بكر بن الخيّاط ، فقال : هذه اشياء يولّدها من عنده على مذاهب القوم ليست محكية عن الفراء ، ولاموجودة في كتبه ، ولكنها مما يرى انها تؤيد المذهب وتنصره .»[2] .

من ثمة ، اقترب المذهبان : البصري والكوفي بعضهما من بعض عند تلامذة المبرد وثعلب من حيث اساليبهما في البحث والموازنة ، مع ميل ظاهر الى التعليل والتأويل وتقارض عدد من المصطلحات ، وظلت العصبية ، فيما راينا من اقوال ثعلب وابي بكر بن الانباري ، وابي الطيب اللغوى .

المدرسة البغدادية :

تبدأ المدرسة البصرية بالخليل بن أحمد ، فسيبويه ، وتمضي المدرسة مع الاخفش الاوسط سعيد بن مسعدة تلميذ سيبوبه ، فالمازني والجرمي ، فالمبرد ابي العباس محمد بن يزيد الذي نزل بغداد مصعدا اليها من البصرة ليزحم الكوفيين في عقر دارهم بغداد التي لم يكن ينافسهم فيها أحد ، وكان البصريون يمدون بابصارهم الى بغداد عاصمة الخلافة ، غير ان رغائبهم كانت تخيب دائما[3] وكانت رئاسة الكوفيين قد انتهت الى ابي العباس أحمد بن يحيى ثعلب يوم نزلها المبرد ، وقد اضحى التنافس وجها لوجه بين البصريين ممثلين بالمبرد وتلاميذه[4] ، وبين الكوفيين ممثلين بثعلب وتلاميذه[5] ، بعد ان كان التنافس يجرى على البعد ، الا لماما[6] .

واذا كانت حدة هذا التنافس قد بلغت اوجها وذروتها بين المبرد وتلاميذه ، وثعلب وتلاميذه ، فان كثيرا من هؤلاء التلاميذ لم تعمهم العصبية ، وكانوا

---

(١) ينظر : الايضاح في علل النحو ٦١ ــ ٦٣ .
(٢) نفسه ٦٣ .
(٣) من ذلك ان يمم سيبويه وجهه شطر بغداد ، وقد ناظره الكسائي في المسألة الزنبورية أخفق فيها سيبويه ، وآب من بغداد مغضبا ، ثم قضى بعد حين . ينظر مجالس العلماء ٨ .
(٤) الزجاج ، وابن السرّاج ، ومبرمان ، وسواهم .
(٥) ابو بكر بن الانباري ، وابو عمر الزاهد ، وهارون بن الحائك ، وسواهم .
(٦) وكان بين علماء اللغة البصريين والكوفيين مناظرات ، ينظر مجالس العلماء (على سبيل المثال) : ٢١ ، ٣٥ ، ٥٩ ، ١٠٤ ، ٢٢٣ وبين النحاة خاصة ينظر : ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ٢٨٨ .

يغشون مجالس العلماء ، ويكثرون من التطواف في مجالس الدرس ، ويترددون بين مجلسي الشيخين فيفيدون من هذا ، ومن ذلك ويوازنون بين الاراء ، فيختارون منها ماينسجم وتفكيرهم وقناعتهم ، ثم ينفذ لهم بعد ذلك بين هذه الاراء والمذاهب رأى واختيار .

هذه الطائفة المتسمحة من النحاة من تلاميذ المبرد وثعلب التي كانت تجمع بين الآراء وتأخذ من المدرستين ، هي التي اطلق عليها اسم البغداديين ، او المدرسة البغدادية وهذه المدرسة تقوم على اساس انتقاء الاراء والمزج بين المدرستين : البصرية والكوفية .

وهكذا نستطيع ان نقسم الدارسين في هذه الحقبة ثلاث طوائف :

طائفة لزمت المبرد ، وتعصبت لارائه ، وتمسكت باراء البصريين .

وطائفة لزمت ثعلبا ، وتعصبت لارائه ، وتمسكت بالمذهب الكوفي .

وطائفة ثالثة ، لم تتعصب لهؤلاء ولالهؤلاء[1] ، ولكنها كانت تختلف الى مجلسي المبرد وثعلب ، كما اشرنا ، وتأخذ عنهما ولم تنصرف الى احدهما الانصراف كله ، ولم تتزمت في التلمذة لاحدهما .

هذه هي الطائفة التي احصاها ابن النديم في «الفهرست» ، تحت عنوان «من خلط المذهبين»[2] ثم كان من امر المحدثين[3] ان يطلقوا عليها اسم البغداديين وكان منهم : ابن قتيبة وابو حنيفة الدينوري ، وابو الحسن بن كيسان ، وابو بكر بن شقير وابوبكر بن الخياط ، ونفطويه ، والاخفش الصغير .

هذه الجماعة كانت من نحاة اواخر القرن الثالث الهجري ، او أوائل القرن الرابع واذا ساغ لنا ان نعد هؤلاء ممثلي المدرسة البغدادية ، فهذا يعني انهم اوائل رجال هذه المدرسة ومؤسسوها . غير ان بعض الباحثين المحدثين[4]

---

(١) ينظر : الدرس النحوي في بغداد .

(٢) الفهرست (فلوكل) ٧٧ ــ ٨٤ .

(٣) وهم

فلوكل في : كتابه « المدارس النحوية »

وكوتولد فايل ، في : مقدمته الانصاف .

وبروكلمان في تاريخ الادب العربي ١٩٥/٢ ، ٢٢١

وشوقي ضيف في المدارس النحوية ٢٤٥ فما بعدها واكثر الدارسين المحدثين

وقد اشار احمد امين في ضحى الاسلام ٢٩٨/٢ الى وجود مذهب منتخب ، ولم يسم

(٤) ينظر « أبو زكريا الفراء » ٢٤٣ ، ٣٦٦ .

صور له الوهم ان هذه المدرسة تبدأ قبل هذا بزمن ، وعاد القهقرى الى مطلع القرن الثالث ، فجعل ابا زكريا يحيى بن زياد الفرا، (ت ٢١٤ ه) وهو راسم المنهج الكوفي وواضع المصطلح الكوفي ، رأس هذه المدرسة ومؤسسها الاول .[١]

على ان اطمئناننا الى وجود المدرسة البغدادية يشوبه شيء من الحذر ، لان ، تصنيف ابن النديم ، وتقسيم اصحاب الطبقات للنحاة طبقات ومراتب لاينهض دليلا على عد هذه المدرسة قسيما ثالثا لمدرستي البصرة والكوفة :

١ ــ فابن النديم لم يشر الى هذه البغدادية التي يؤكدها الدارسون لهذه ، الطائفة من النحاة التي ادرجها تحت عنوان «من يخلط بين المذهبين» .
٢ ــ وان هذا المزج بين الاراء ، لايمثل اتجاها جديدا متميزا ، لامن حيث طبيعة الدرس النحوي ولامن حيث المصطلح .
٣ ــ وان احدا من اصحاب التراجم لم يدرج احدا منهم تحت راية البغدادية صراحة .
٤ ــ وان هؤلاء المترجمين كانوا مضطربين جدا في نسبة النحاة الى البغدادية وجاراهم في ذلك كثير من المحدثين .
٥ ــ وان اكثر النحاة الذين وقع الاتفاق على بغداديتهم لاتذكر لهم كتب النحو رأيا يعتّد به .

واذا عدنا الى كتب التراجم والطبقات نستفتيها ، واقدمها «مراتب النحويين» «لابي الطيب اللغوي (٣٥١ هـ) و «اخبار النحويين البصريين» لابي سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) وطبقات النحويين واللغويين» لابي بكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) نجد :

١ ــ ان ابا الطيب قد جعل النحاة واللغويين مقسمين على اساس المدن التي يقيمون فيها ، البصرة ، فالكوفة ، فبغداد ، ولم يكن قد نزل بغداد من

(١) ينظر رد الدكتور مهدي المخزومي ومناقشته في : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق والدرس النحوي في بغداد ٢٤١

العلماء الا الكوفيون الذين لم يكونوا بشيء عنده[1] .

٢ ــ وان ابا بكر الزبيدي قد قسم النحاة واللغويين على الاقاليم ، ثم صنف كلا في طبقات ولم يكن فيهم من نحاة منسوبين الى بغداد أحد .

٣ ــ وان الزبيدي قد عد علي بن سلبمان الاخفش الصغير ، وابا بكر بن شقير وابن الخياط في الطبقة التاسعة[2] ، من النحاة البصريين اصحاب ابي العباس المبرد وهم ممن كانوا عند ابن النديم يخلطون بين المذهبين ، وعند المحدثين من البغداديين .

٤ ــ وان السيرافي قد ترجم للبصريين ، وجعل خاتمتهم تلاميذ المبرد ، ومنهم ابن كيسان وقد عده ممن خلط بين العلمين[3] وجعله الزبيدي ممن خلط المذهبين من اصحاب ثعلب[4] .

٥ ــ وان الزبيدي قد عد ابن قتيبة في الطبقة السادسة[5] من اللغويين البصريين لاالنحويين وعد أبا حنيفة الدينوري في الطبقة الثانية من اللغويين البصريين[6] .

٦ ــ وان هذا الاضطراب لا يوضح بحال القسمات المذهبية التي يتسم بها البغداديون .

وأنا لنجد ابن قتيبة نفسه يتحدث عن البغداديين فيجعلهم مع الكوفيين رأيا واحدا ، وهذا يومىء الى ان البغداديين هم الكوفيون ، ولو كان بغداديا على المذهب الذي ذكره الدارسون لما ذكر البغداديين من غير ان يسلك نفسه فيهم قال : « وكان الفراء ــ فيما احسب ــ وغيره من البغداديين يقول : رهن جمع رهان ، مثل : كتاب وكتب ...)[7] .

وقال في تعريف العدد :«واذا اردت ان تعرف عددا تكثر الفاظة ، نحو : ثلاث مئة الف درهم ، وخمس مئة الف درهم ، الحقت الالف واللام في آخر لفظة منها ، فقلت : مافعلت بثلاث مئة الف الدرهم ، وخمس مئة الف

---

(١) ينظر مراتب النحويين ١٤٤ ، ١٦٠ ، ١٦١ .
(٢) طبقات النحويين واللغويين ١١٥ ــ ١١٧ .
(٣) اخبار النحويين البصريين ٨١ . وعدّ معه ممن يخلط بين علم البصريين وعلم الكوفيين
(٤) طبقات الزبيدي ١٥٣ .
(٥) نفسه ١٨٣ .
(٦) نفسه ٢١٥ .
(٧) غريب الحديث ٣٢٠/١ .

الدرهم ، هذا مذهب البصريين ، لايجيزون غيره ، والبغداديون يجيزون : مافعلت ثلاث مئة الالف الدرهم .»[١] .

وهذا الذي ذكره ابن قتيبة معزوا للبغداديين ، هو مذهب الكوفيين[٢] ، واذا كان ابن قتيبة رأسا في البغداديين ، اولو كانت المدرسة البغدادية قد تلت في ظهورها عصر المبرد وثعلب ، لكان يجب الا يذكر ابن قتيبة اسم البغداديين البتة ، او لكان اشار الى نسبته اليهم .

وبناء على مقاله الزجاجي : «ومن علماء الكوفيين الذين اخذت عنهم ابو الحسن بن كيسان ، وابو بكر بن شقير ، وابو بكر بن الخياط ، لان هؤلاء قدوة اعلام في علم الكوفيين وكان اول اعتمادهم عليه ، ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك فجمعوا بين العلمين . »[٣]

وقد سلكهم السيرافي في البصريين من تلاميذ المبرذ ثم جمعوا بين العلمين كما مر .

نقول : نباء على هذه المقالة يكون البغداديون الاوائل ، كوفيين ثم اخذوا عن البصريين او بصريين اخذوا عن الكوفيين فجمعوا بين العلمين ، كما لم يبق لعد الدكتور شوقي ضيف والدكتور مازن المبارك[٤] للزجاجي في البغداديين ، من مقنع لان الزجاجي بصرى خالص ، لتمسكه بمذاهب البصريين ، وتشديده النكير على الكوفيين ورواية احتجاجاتهم بالفاظ البصريين[٥] في كتابه : الايضاح وفي سائر ارائه ، ومن صنيعه في هذا الباب انه اختصر كتاب «الزاهر» لشيخه ابي بكر بن الانبارى الكوفي الخالص ، ورد عليه بمذاهب البصريين .

من ثمة يكون رجال البغداديين الاول هم :

ابن كيسان (ت ٢٩٩ هـ) ، وابن شقير (ت ٣١٥ هـ) ، وابن الخياط

---

(١) ادب الكاتب ٢١٧ .

(٢) الرضى على الكافية ٢٥٥/١ ، ١٤٦/٢ . وينظر : الهمع ١٥٠/٢ .

(٣) الايضاح في علل النحو ٧٩ .

(٤) الزجاجي ــ حياته وآثاره ومذهبه النحوي ١٠ .
وينظر : مقدمة الايضاح ٢ ، ٣ . وتنظر مناقشة الدكتور مهدي المخزومي في كتابه الدرس النحوي في بغداد ١٢٨ فما بعدها .

(٥) نفسه (٨٠) .

(ت ٣٢٠ هـ) فأما ابن الخياط[١] وابن شقير[٢] ، فهما على الرغم مما ورد عنهما في مقالة الزجاجي لم تورد لهما كتب النحو المتقدمة والمتأخرة اراء مهمة ، ذات طابع علمي ، او مذهب يمكن ان ، ينفذ بين مذاهب النحاة ، وكل ما أورده لهما الزجاجي هو حكاية مذاهب الكوفيين وعللهم .

ومما اورده النحاة، وهو نزر لاقيمة له ، هو :

١ ـــ وجه ابن الخياط مذهب الكسائي في جواز (فاذا هو اياها» في المسألة الزنبورية[٣] بأن (اذا) ظرف فيه معنى (وجدت) و(رأيت) فجاز له ان ينصب المفعول

وهو توجيه سيء فيه تعمل واضح .

٢ ـــ ذهب ابن شقير الى حرفيه (ليس)[٤] وهو مذهب الكوفيين[٥] ، وعليه ابن السراج وابو على الفارسي .[٦]

وهو في رأيه هذا يصدر عن الكوفيين .

واما ابن كيسان ، فهو ابو الحسن محمد بن احمد بن كيسان ، اخذ عن ابي العباس المبرد وابي العباس ثعلب ، وكان عارفا بالمذهبين ، قال ابن مجاهد : انه انحى من الشيخين ، يعني المبرد وثعلبا .

وتوفي سنة تسع وتسعين ومئتين[٧] .

وقد نقلت له كتب النحو مثلا من الاراء ، منها :

١ ـــ ان الفعل المضارع (فعل الحال) المنصوب بعد اللام ، منصوب ب(كي) خلافا ، للبصريين لانه منصوب عندهم بان مضمرة ، وخلافا للكوفيين ، لانه انتصب عندهم باللام بطريق الاصالة[٨] .

٢ ـــ اجازته تصغير (أفعل) في التعجب قياسا ، خلافا للبصريين فهم ينكرونه واجازه ابو بكر بن الانباري لمن صغر سنه[٩] .

---

(١) ترجمته في النزهة (٢٤٧ ، ومصادر اخرى في الهامش .)
(٢) ترجمته في النزهة ٢٥١ ، ٢٥٢ ومصادر اخرى في الهامش وقد سلكه ابو البركات الانباري في الكوفيين .
(٣) مغني اللبيب ٩٦/١ وينظر رد ابن هشام عليه .
(٤) نفسه ٣٢٥/١ .
(٥) الرضى على الكافية ٢٧٦/٢ .
(٦) المغني ٣٢٥/١ .
(٧) ينظر : النزهة ٢٣٥ ، ومصادر اخرى في الهامش .
(٨) مغني اللبيب ٣٢٤/١ .
(٩) نفسه ٧٦٠/٢ .

٣ ـــ ذهب الى بناء (هذان) في قوله تعالى : «انَّ هذان لساحران» ، قال : «لان المفرد منها مبني ، وهو (هذا) وكذلك الجمع (هؤلاء) مبني فنجعلها مبنية مثلها»

وقد مضى على مامضى عليه البصريون من التأويل البعيد والحدود المنطقية ، اذ قال عنه الزجاجي : (ولابن كيسان في كتبه حدود للاسم غير هذا من جنس حدود النحويين ، وحدّه في الكتاب المختار بمثل الحدّ الذي ذكرناه من كلام المنطقيين .[1] »

وقد تابع الكوفيين في ان (ايا) عماد ، والضمير هو الياء والكاف والهاء في (اياى واياك واياه) وسواها من ضمائر النصب[2] .

ولعل ماذكرناه وغيره كان علة انكار دارسين محدثين[3] لوجود مدرسة بغدادية ذات طابع معروف ، ومعالم ظاهرة ، ومدافعتهم هذا الرأي بقوة ، لان الدارس لايتبين منهجا دقيقا بازاء المذهبين النحويين : البصري والكوفي .

ولقد كتب على النحو الكوفي ان ينحسر من مجالس الدرس بعد هذه الطائفة من الدارسين ، واذا كان قد ظهر في بغداد وسواها من مدن العراق نحاة كانت لهم قدم ثابتة في الدرس النحوي ، اكثروا التأليف وشاركوا في عرض الاراء ، وتفتيق العلل ، فانهم كانوا يميلون الى البصريين باطراد ، وكانت لهم احيانا آراء نافذة ، وتوجيهات توافق في التعليل منحاة الكوفيين . واذا حق لنا ان نسلك هؤلاء في البغداديين كما فعل الدكتور شوقي ضيف ، فان في مقدمة هؤلاء :

١ ـــ اباسعيد الحسن بن عبد الله السيرافي (ت ٣٦٨ هـ)[4]

٢ ـــ وابا علي الحسن بن احمد الفارسي (٣٧٧ هـ)

٣ ـــ وابا الحسن على بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤ هـ)

٤ ـــ وابا الفتح وعثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)تلميذ الفارسي[5]

---

(١) الايضاح ٥٠ .

(٢) الرضى على الكافية ٩١٢ .

(٣) ينظر : ابو علي الفارسي ٤٤٦ ، الدرس النحوي في بغداد ففيها تفصيل واف .

(٤) عده الدكتور شوقي ضيف من رجال المدرسة البصرية ، ينظر : المدارس النحوية ١٤٥ .

(٥) وقد عدهما الدكتور ضيف بغدايين .

٥ ـــ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١ ه او ٤٧٤) . وأبا القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)
٦ ـــ وابا السعادات هبة الله بن على المعروف بابن الشجري (ت ٥٤٢ هـ)
٧ ـــ وابا محمد عبد الله بن احمد المعروف بابن الخشاب (ت ٥٦٧ هـ)
٨ ـــ وابا محمد ناصح الدين سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان (ت ٥٦٩ هـ)
٩ ـــ وابا البركات عبد الرحمن بن محمد الانباري (ت ٥٧٧ هـ)
١٠ ـــ وابا البقاء عبد الله بن الحسين العكبرى (ت ٦١٦ هـ)

وهؤلاء النحاة جميعا وان كانوا يوافقون الكوفيين احيانا في عدد من آرائهم ، فانهم كانوا ينهجون نهجا بصريا لاغبار عليه ، ويعتدون اعتدادا كبيرا بمذاهب البصريين ، ويستخدمون مصطلحاتهم ويسلك كثير منهم نفسه في البصريين صراحة لقولهم : اصحابنا ، حيث نقل رأيا ، او ناقش تعليلا ، قال ابن جني في فتح احرف الحلق حين تكون ثانية في الاسماء :

« ولعمرى ان هذا عند اصحابنا ليس امرا راجعا الى حرف الحلق ، لكنها لغات وانا ارى في هذا رأى البغداديين في ان حرف الحلق يؤثر هنا من الفتح معتدا ، فلقد رأيت كثيرا من عقيل لا احصيهم يحرك من ذلك مالايتحرك ابدا لولا حرف الحلق . »[1]

والرأي المنسوب الى البغداديين ، هو رأى الكوفيين ، والرأي الذي نسبه الى اصحابه هو قول البصريين .

وهؤلاء النحاة كانوا ميالين في الجملة الى الاغراب في الجدل ، والغلو في التعليلات والتماس المنطق في التقعيد والتوجيه .

وقد حظيت كتب البصريين بعنايتهم ، تلخيصا ، او شرحا ، ومن يرجع الى سلسلة اسانيدهم ويتتبعها يجد انهم جميعا بصريون ، آخذون عن بصريين ، حتى تبلغ الغاية عند شيوخ البصريين الاوائل ، والمبرد خاصة على ان هذا لم يمنع ان تكون لهم آراء مستحدثة ، ونظرات فيها سداد وثقابة فكر ، تنم على عقل نشيط ، ولهذا تفاوتت دراساتهم عمقا وابتداعا ، او ضعفا واتباعا وتفاوتت حملا على ذلك ، اقدارهم عند الدارسين .

---

(١) المحتسب ١/١٦٧

فاما السيرافي والرماني فقد قاما على كتاب سيبويه ، وهو عماد الدرس عند البصريين بالشرح وايضاح مشكلاته ، وكان شرح السيرافي في البراعة والتفسير ، وهو اوسع شروح الكتاب غير منازع[*] . حتى لقد حسده عليه معاصره ابو علي الفارسي ، وكان يضمر ان يشرح الكتاب ، فعزف عنه بعد ذلك وقد تلمذ للزجاجي وابن السراج ، ومبرمان ، وكلهم بصريّ .

واما الفارسي ، وقد جعله عدد من الباحثين راسا ، في البغداديين[١] فقد ، صنف في القراءات والنحو ومنها : الايضاح العضدى الذى صنفه نزولا عند رغبة عضد الدولة البويهي ، وحين نظر فيه عضد الدولة استهان به ، فصنف له الفارسي «التكملة» وحمله اليه فوجده صعب مسالكه ، فقال : «غضب الشيخ وجاء بما لانفهمه نحن ولاهو»[٢]

وقد صنف سوى ذلك كتبا اجاب فيها عن مسائل سئل عنها : الشيرازيات ، والبصريات ، والحلبيات ، والبغداديات ، وسواها .

وعرف عنه شدة احتفاله بالقياس ، ونقل عنه قوله : «أخطىء في خمسين مسألة في اللغة ، ولااخطىء في واحدة من القياس»[٣] .

وقد عجب منه تلميذه ابن جني ، فكان يقول : «ماكان اقوى قياسه ، فكأنه كان مخلوقا له»[٤] وكان بعد ذلك مغرما بالتعليل ، ولم يكتف بتعليل آرائه ، بل مضى على سنته في تعليل آراء من عداه ، حتى سيبويه[٥] وكان ينكر على القراء ، قراءات انكرها البصريون ، وان كانت سبعية ، اذا تعارضت مع القياس ، من ذلك رده ، قراءة حمزة الزيات «واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام» ، بعطف الارحام على الضمير المجرور[٦] ومن ثمة عد في البصريين[٧] .

(*) منه نسخ شيء في اماكن متفرقة ، ومنه نسخة كاملة في دار الكتب المصرية مستنسخة بأمر العلامة أحمد تيمور مذيلة بفهارس ، رقمها (٥٢٨ نحو تيمور) في سبع مجلدات وينظر كتاب سيبويه وشروحه ١٧٧ فما بعدها .

(١) المدارس النحوية ٢٥٧ ، مقدمة محقق المرتجل ٥٠

(٢) معجم الأدباء ٢٣٨/٧

(٣) الخصائص ٨٨/٢ ، نزهة الالباء ٣١٧ . ومعجم الأدباء ٢٣٨/٧

(٤) الخصائص ٢٧٧/١

(٥) ينظر المدارس النحوية

(٦) الحجة ٢٢٩/٣ عن ابو علي الفارسي/٢٤٠

(٧) ابو علي الفارسي ١٠٦ فما بعدها ، وجعله الدكتور عبد الفتاح شلبي شيخا لمدرسة قائمة بذاتها تنزع الى البصرية الأولى

واما الرماني ، فقد شرح الكتاب شرحا اعظل فيه ، وعقد كثيرا من مسائله ، لانه «كان يمزج كلامه بالمنطق ، حتى قال ابو علي الفارسي : ان كان النحو ما يقوله ابو الحسن الرماني فليس معنا شيء منه ، وان كان النحو مانقوله فليس معه منه شيء[1] .

اكثر مصنفاته النحوية تنصبت على كتب البصريين : سيبوبه ، والمازني ، والمبرد ، والزجاج ، وابن السراج[2] وألف في العقائد وعلم الكلام[3] .

وأما ابن جني ، فقد كان نحويا بصريا ، تشهد بذلك عبارته ، ومصطلحاته ، وتصانيفه وكتابه «الخصائص» الذي وضعه على رسم الكلاميين والفقهاء يؤكد بصريته ، قال في الحافز على تأليفه اياه : «وذلك انا لم نر احدا من علماء البلدين تعرض لعمل اصول النحو ، على مذهب اصول الكلام والفقه»[4] .

والناظر في كتابه «اللمع» يجده بصريا في الصورة ، والمنهج ، وكانت عنايته منصرفة الى شيوخ البصريين ، من ذلك شرحه على تصريف ابي عثمان المازني المسمى بالمصنف .

وأما عبد القادر الجرجاني ، فقد صنف كتبا ، منها : شرحه على كتاب «الايضاح» لابي على الفارسي ، وسماه «المقتصد»[5] ، وكان متمسكا بنظرية العامل تمسكا متينا حتى كان من أمره ان وضع كتيبا صغيرا في العوامل ، اسمه «العوامل المئة» .

وأما الزمخشري ، وهو ذو المصنفات الجيدة في النحو والتفسير والبلاغة واللغة ، فان كتابيه «المفصل» و«الانموذج» كتابان في الصورة العامة بصريان وان كان ذا مرونة واجتهاد ، واتجاهه تغلب عليه شخصيته أخاذه مستقلة .

واما ابن الخشاب ، فقد شرح لمع ابن جني ، واملي شرحا اخر على كتاب «الجمل» لعبد القاهر الجرجاني ارتجالا وسماه «المرتجل» ، يتضح فيه شيء من السماحة في عرض الاراء ، وموازنتها ، بعضها بالبعض الاخر ، والنفوذ منها الى الترجيح ، والتأييد ولكنه ينزع ، بوجه عام ، منزعا بصريا ، حتى نجده في

---

(١) نزهة الالباء ٣١٩ .
(٢) ينظر : الرماني النحوي ٨٩ ــ ٩١ .
(٣) نفسه ١٠٠ ــ ١٠٣ .
(٤) الخصائص ١/
(٥) حققه الدكتور كاظم بحر المرجان .

مواضع من كتابه يسميهم ب (المحققين)[١] .

أخذ عن طائفة منهم ابو منصور الجواليقي[٢] .

واما ابن الدهان ، فقد صنف كتبا حسانا ، منها شرح ايضاح الفارسي ، وشرح لمع ابن جني[٣] والفصول ، وسواها ، وهو فيها ذو قدرة عظيمة على التعليل والاستنباط[٤] .

واما ابو البركات الانباري ، فالناظر في مسرد مؤلفاته يجده اخذا بعلوم شتى وانه لم يكن بالنحوى المحض ، وحين الف في النحو طغت عليه النزعة الفقهية والمنطقية ، فالكتيبان اللذان وضعهما في علم صناعة النحو ، مستمدان من اصول الفقة ، قال في اول كتابه «لمع الادلة» :

«اصول النحو ادلة النحو التي تفرعت منها فروعه وفصوله، كما ان اصول الفقه ادلة الفقه التي تنوعت عنها جملته وتفصليه .»

وسمى ثانيهما «الاغراب في جدل الاعراب » ، وليس هذا مما ينبغي له في الدرس النحوى واما كتابه «اسرار العربية» فنحوه بصرى خالص .

واما كتابه «الانصاف في مسائل الخلاف» فقد تابع البصريين في حل مسائله وكانت طريقته في الموازنة والحجاج طريقة منطقية .

واما العكبري ، فقد كان معنيا بالقراءات ، والنحو واللغة ، اخذ عن طائفة منهم ابن لجليسي المبرد ، والزجاج حتى نبغ ، وكان ذاشخصية نحوية مستقلة مقتدرة وقد كان شيخه الزجاج يفضله على ابي جعفر النحاس[٥] صنف كتابا رد فيه على شيخه المبرد في رده على سيبويه في «مسائل الغلط» ، سماه «الانتصار لسيبوبه من المبرد»[٦] . وله كتاب «المقصور والممدود» وهو كتاب نفيس ، وكان يعاصره على بن سليمان الاخفش الصغير تلميذه سنة : ٣١٥ هـ تلميذ المبرد وثعلب ، وقد نزل مصر سنة ٢٨٧ هـ ، ومكث فيها ثلاثة عشر عاما ، يعلم فيها العربية .

ولعل من اكثر المصريين الوافدين الى العراق افادة وتصنيفا هو ابو جعفر احمد بن محمد النحاس المتوفي سنة ٣٣٨ هـ ، اخذ عن ابي العباس المبرد ،

---

(١) المرتجل ١٧ .

(٢) البغية ٢٩/٢ .

(٣) البلغة في تاريخ ائمة اللغة ٨٥ ، ٨٦ . سماه الغرّة ، وهو شرح نفيس .

(٤) من الشرح جزءان مصوران في مكتبة الدراسات العليا بآداب بغداد .

(٥) نفسه ٢١٩ . وينظر ٢٢١ في ترجمة النحاس .

(٦) منه نسخة مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي رقمه ١٣٥٢ ، وحقق في القاهرة . ولم ينشر .

وعلي بن سليمان الاخفش ونفطويه والزجاج[١] . وابي بكر بن الانبارى ، وصنف كتبا حسانا منها : اعراب القرآن[٢] والقطع والائتناف ، وشرح القصائد التسع[٣] ، وشرح ابيات سيبويه[٤] وكتيب التفاحة في النحو[٥] وكان منحازا الى صنف البصريين ، مع ميله الى ذكر خلافات النحويين في مسائل النحو مع اجتهاد ووضوح شخصية[٦] .

مدرسة مصر والشام

لقد ظهرت بواكير النحو العربي في البصرة ثم الكوفة ، وقد تأخر ظهور هذا الدرس في الامصار العربية الاسلامية الاخرى ، وان كانت هذه الامصار قد عنيت، منذ وقت مبكر بالقراءات والحديث ومايتصل بهما من مسائل ، ولاينبغي لنا ان ننكر الوشائج المتينة التي تربط القراءات ، بالدرس النحوي ، واذا اعددنا العناية بالقراءات سبيلا الى الدرس النحوي فان النحاة والنحو قد ظهرا مع ظهورهما في البصرة والكوفة . بيد ان انصراف علماء العربية الاوائل الى دراسة النحو علما ذا حدود واصول وقواعد كان في هذين المصرين في البدء ، ثم تلا ذلك شغف جمهور من الدارسين به ، فنجم في الافاق عدد منهم في مصر والشام والاندلس ، غير انهم جميعا كانوا تلامذة لنحاة العراق خاصة البصرة فبغداد .

وكان اول مصري درس النحو هو (ولاد بن محمد التميمي) الذي شد الرحال من مصر الى البصرة، وقد التقى بالخليل ، وجلس في حلقته واخذ عنه علم العربية ، وتلا ذلك تلاقح اذ رحل ولده محمد بن ولاد الى بغداد ، ولزم المبرد وانتسخ لنفسه نسخة من كتاب سيبويه على نسخة المبرد نفسه ، ثم عاد الى مصر حيث تصدر للدرس ، وكان من معاصريه ابو جعفر الدينوري المتوفي

---

(١) نزهة الالباء ٣٩١ .
(٢) حققه الدكتور زهير غازي زاهد ، ونشرته وزارة الاوقاف العراق .
(٣) حققها الدكتور احمد خطاب ، نشرته وزارة الاوقاف الكتاب الاول ونشرت وزارة الاعلام الثاني .
(٤) نشرت مرتين الاولى بتحقيق الدكتور احمد خطاب في حلب ، والثانية بتحقيق الدكتور زهير غازي زاهد في النجف .
(٥) نشره الاستاذ كوركيس عواد .
(٦) ينظر : طبقات النحويين واللغويين ٢٢٠ وقال عن اعراب القرآن « جلب فيه الاقاويل وحشد الوجوه ، ولم يذهب في ذلك مذهب الاختيار والتعليل » .

سنة ٢٨٩ هـ ختن ثعلب ، وقد كان كوفيا ثم لحق بالمبرد البصري ، شد هذا الرجل الرحال الى مصر ، واقام بها ، وصنف للمصريين كتاب «المهذب»[١] .

وتلا ذلك ان رحل ابو العباس احمد بن محمد بن ولاد المتوفي سنة ٣٣٢هـ الذي ورث نسخة كتاب سيبويه من والده التي جلبها الى بغداد ، وافاد من حلقات العلم فيها ، وكان يميل الى البصريين غير ان بعض المحدثين رجح بغداديته ، وانه اول من فتح باب البغدادية على الدارسين في مصر وان مدرسة مصر قد نهجت بعد ذلك نهجا بغداديا جنح الى الاختيار والتوفيق بين المذاهب «وبذلك يلتحم نحو المدرسة المصرية بنحو المدرسة البغدادية مع نشأتها المبكرة»[١]

هكذا يتطور الدرس النحوي في مصر تطورا بعيد المدى فيعني به الدارسون ، وينبغ فيه نحاة مبرزون ، صنفوا التصنيف ، وكانوا يعرضون للاراء النحوية ، وكثيرا ماتنفذ لهم بينها اراء يتفردون بها ، او يعالجون مسائل النحو بالتوجيه الحصيف والموازنة البارعة .

من اشهر هـؤلاء :

ابو الحسن طاهر بن احمد المعروف بابشاذ المتوفي سنة ٤٦٩ هـ ، وكان قد نزح الى بغداد وتلقى النحو عن مشيخة العربية فيها ، ثم عاد الى مصر ، وتصدر للاقراء والتدريس وصنف كتبا منها : شرح كتاب الجمل للزجاجي[٢] ، ووضع مقدمة في النحو سماها «المقدمة المحسبة»[٣] وشرحها[٤] «وكان من حذاق نحاة المصريين على مذهب البصريين»[٥]

ويحيى بن معط الزواوي المتوفي سنة ٦٢٨ هـ ، وقد نزل دمشق ، ثم القاهرة صنف كتبا شتى منها كتاب الفصول[٦] في النحو وشروح على كتب المتقدمين من النحاة[٧] وقد شهر بمنظومته النحوية المسماة ب«الدرة

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ٢١٥ .
(١) المدارس النحوية ٣٣١ .
(٢) تاريخ الادب العربي لبروكلمان ١٧٤/٢ .
(٣) ينظر : نزهة الالباء ٣٦١ ، وفيه « المحتسب » والصواب ما ورد في هامشه . وحققها حسام النعيمي على نسخة المتحف العراقي .
(٤) حققها الدكتور محمد ابو الفتوح ونشرها في القاهرة سنة ١٩٧٨ .
(٥) نزهة الالباء ٣٦١ .
(٦) منه نسخة مخطوطة في برلين ٦٥٣٦ وبودليانا ٣ ، ودمشق ١٤١ . (بروكلمان ٣٠٧/٥) .
(٧) منها : العقود والقوانين وكتاب الفصول ، وكتاب حواش على اصول ابن السراج .

الالفية»[١] . ذكرها ابن مالك في اول منظومته «الخلاصة» المعروفة بالفية ابن مالك .

ويحق لنا ان نعد ابن معط اول من وسع باب المنظومات[٢] لتعليم النحو وسواه من علوم العربية[٣] .

وابو الحسن على بن محمد علم الدين السخاوى المتوفي سنة ٦٤٣ هـ ، عني بالقراءات والنحو ، وسواهما ، ووضع شرحين على مفصل الزمخشري : «سفر السعادة وسفير الافادة»[٤] والمفضل وشرح احاجي الزمخشري النحوية[٥] .

وكان يعاصره في الشام ابو البقاء يعيش علي بن يعيش الحلبي المتوفي سنة ٦٤٣ هـ وكان قصد بغداد ليأخذ عن ابي البركات الانبارى ، وقد تناهى اليه نبأ وفاته ، وهو في الموصل فعاد ادراجه الى حلب ، وتصدر فيها للتعليم حتى وافته المنية[٦] .

عرف ابن يعيش بشرحه على مفصل الزمخشري[٧]

وقد شرح التصريف الملوكي لابن جني[٨]

ولم يكن احد من النحاة الشاميين الخلصاء ، من قبل ومن بعد من بلغ شأوه ، او سدّ مسدّه وابو عمرو عثمان بن ابي بكر المعروف بابن الحاجب المتوفي سنة ٦٤٦ هـ قضى الشطر الاعظم من حياته في القاهرة ، ثم جول بين دمشق والكرك ، والقاهرة ، فالاسكندرية ، حيث كان منتهي اجله .

صنف ابن الحاجب كتبا في النحو ، والفقه على مذهب الامام مالك ، وقد شهرت مقدمتاه في النحو ، والتصريف ، الكافية والشافية شهرة عالية وذاع صيتها في الافاق ، فاقبل عليها الدارسون بالشرح والتعليق ، واكثر الشروح

---

(١) فقد سبقه الحريري في منظومته « ملحق الاعراب » .

(٢) فقد وضع منظومته في القراءات السبع ، ونظم صحاح الجوهري في اللغة ينظر : بغية الوعاة ٣٤٤/٢ .

(٣) وعليها شروح كثيرة اشهرها : « الغرة المخفية » وللخباز الموصلي (ت ٦٣٧ هـ) منها عدة نسخ في برلين ٦٥٣٣ ، وباريس ٦٥٠٩ ، والمتحف العراقي ٢٣٩٣ . وغيرها .

(٤) يحققه احمد هريدي للدكتوراه في جامعة القاهرة .

(٥) بغية الوعاة ١٩٢/٢ .

(٦) بغية الوعاة ٣٥١/٢ ، ٣٥٢ وبروكلمان ٢٧٥/٢٧٤/٥ .

(٧) طبع مرتين .

(٨) نشره الدكتور فخر الدين قباوة في حلب .

ذيوعا شرحا الرضي الاسترابادى[1] .

وقد زعموا ان الكافية كانت تلخيصا لمفصل الزمخشري ، كما شرح المفصل شرحا فيه من اثر الفقه والمنطق شيء كثير ، سماه «الايضاح[2] » .

وصنف الامالي في خمسة موضوعات ، كان منها اماليه على المفصل ، وكتبا اخرى كثيرة وقد شق ابن الحاجب طريق الاتجاه التعليمي في الدرس النحوي ، وذلك بوضع المقدمات وشروحها والمنظومات وشروحها ، فقد شرح مقدمته الكافية ، والشافية[3] ، ثم نظم الكافية سماه «الوافية» ثم شرح الوافية[4] .

وجمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الجياتي المتوفي سنة ٦٧٢ هـ ، نزح من الاندلس الى دمشق في ريعان شبابه ، بعد ان جلس ثلاثة عشر يوما في حلقة ابي علي الشلوبين ، اخذ في بعلبك عن ابن يعيش ، وصار امام نحاة الشام ، ومرجع الدارسين[5] .

صنف كتبا جزيلة النفع منها :

الالفية ، وهي المنظومة الشهرى في النحو ، شرحها جمهور كبير[6] . وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد[7] وهو مختصر في النحو ، شرحه المصنف[8] ، وتوالت عليه شروح اخرى[9] أهمها واوضحها وابعدها أثرا شرح ابي حيان الاندلسي المسمى بـ «التذييل والتكميل في شرح التسهيل»[10] حشد فيه اقوال النحاة وتوجيهاتهم .

ولابن مالك ايضا لامية الافعال ، وشواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح واخص ما عرف به ابن مالك اكثاره الاستشهاد بالحديث النبـــــــوي

---

(١) ينظر في تعداد هذه الشروح والحواشي : بروكلمان ٥/٣٠٩ ـــ ٣٢٦ . ومنها شرح المصنف وقد طبع في استانبول .

(٢) حققه الدكتور موسى بناي العليلي رسالة دكتوراه .

(٣) نشر في القاهرة ضمن شروح الشافية .

(٤) منه نسختان مخطوطتان في الاسكوريال والمدينة المنورة ، وقد حققه الدكتور موسى بناي العليلي على هاتين النسختين ، ولم ينشر .

(٥) انظر مقدّمة شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ ، تحقيق عدنان عبد الرحمن ـــ بغداد

(٦) ينظر بروكلمان ٥/٢٧٧ ـــ ٢٩١ .

(٧) طبع بتحقيق محمد كامل بركات .

(٨) طبع الجزء الاول منه بتحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد .

(٩) ينظر : بروكلمان ٥/٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(١٠) منه نسخة في دار الكتب المصرية ، وتحقق منه اجزاء في الازهر لنيل الدكتوراه .

على غير ما درج عليه النحاة من اقلالهم الاستشهاد به ، لانه فيما يبدو ، سلك طريقا وسطيا ، ولم يقف على اثار السلف ، حذو الحافر للحافر ، لان مذهب الكوفيين القياس على الشاذ ومذهب البصريين اتباع التأويلات البعيدة التي خالفها الظاهر ، وابن مالك يحكم بوقوع ذلك من غير حكم عليه بقياس ولا تأويل . قال ابن هشام وهذه الطريقة طريقة المحققين وهي أحسن الطريقتين(١) .

والتماس العلة وقد وقع له بسبب من ذلك كثير من تعارض العلل(٢) .

هذه الطائفة المرموقة من النحاة التي شهدت الدرس النحوي في اوج رقيه من مصر والشام كانت قد عنيت بكتب سابقين في مقدمتها جمل الزجاجي ومفصل الزمخشري ، وكلاهما بصري ، وهذه الطائفة على استقلاليتها وتفردها ، في كثير من الأقوال ، تنحو منحاة البصريين ، وتستعمل مصطلحاتهم فهي اذن في الاتجاه العام بصرية الهوى ، والقول في استقلاليتها فيه من غير شك ، شيء من التسامح «اذ لم يكن للعلماء في مصر والشام مذاهب في النحو جديدة او مستحدثة ، وجل ما هنالك انما هو دراسة لاراء المتقدمين ، واحياء لتراثهم ، وترجيح لبعض الآراء وتعليق عليها بالشرح والدرس»(٣) .

وقد مضى الدارسون التالون على ما مضى عليه هؤلاء من جميع الآراء النحوية ، والموازنة بينها وبيان العلل والاسباب في العموميات والجزئيات ، وقد تنفذ لهم في الاثناء ، اراء ومذاهب وهذه هي طريقة المحققين من النحاة من مثل شراح الألفية ، وفي مقدمتهم :

بدر الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن مالك المتوفي سنة ٦٨٦ هـ المعروف بابن الناظم وجمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الانصاري المتوفي سنة ٧٦١ وكان قد تمثل ، مذاهب النحاة ولهذا كان ميالا الى الموازنة ، واستنباط العلل وبيان الاراء ، وتقليب المسائل على الوجوه المحتملة ، وقد قال فيه ابن خلدون : «ووصل الينا لهذا العصر ديوان(٤) من مصر منسوب الى جمال الدين بن هشام من علمائها ... فوفقنا منه على علم

---

(١) الاقتراح ٢٠٨ .
(٢) ينظر : مقدمة محقق شرح التسهيل لابن مالك ٥٤ ــ ٦٩ .
(٣) القواعد النحوية ١٢٣ .
(٤) يقصد به كتاب مغني اللبيب .

جم ، يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ... وكأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا اثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه ...»(١) .

ولا نعلم احد ذكر مذهبا موصليا كان رائده ابن جني ، كما ظن ابن خلدون ، ولو سرنا على هذا الدرب لفتقنا مذاهب لا حصر لها في الافاق ، وقد اصطنع ذلك باحث معاصر(٢) .

غير ان بعض الباحثين المحدثين يعده في البغداديين الذين لا ينحازون الى مذهب ولا يلتمسون المتابعة والموافقة باطراد ، بل هو يختار من الآراء ما ينسجم ومقاييسه وتفكيره(٣) .

واذا اجرينا هذا المجرى كان النحاة المصريون المتأخرون كالدمامنبي والسيوطي والاشموني وهم اميل الى الجمع والتهذيب ، من البحث والنظر العلي ، نحاة من رجال لامدرسة البصرية التي تسير باتجاه المذهب البغدادي .

مدرسة الاندلس والمغرب :

لقد تلمذ دارسو النحو الاندلسيون والمغاربة اول مفتتح الدراسة النحوية على النحاة المشارقة ، غير ان الدارسين الاوائل لم يكونوا نحاة بالمعنى العلمي الدقيق ، فقد نزح عدد منهم الى مصر والعراق ، وجعلوا في حلقات الكبراء من النحاة ، ثم عادوا بمحصولهم العلمي هذا الى الاندلس ليمنحوا طلابهم مما قبسوه شيئا قل او كثر .

وأفادة الاندلسيين والمغاربة من علماء العربية في المشرق كانت باحدى طريقتين : اولاهما : نزوح عدد من الاندلسيين الى المشرق ، واول نحوي بالمعنى العلمي لهذا المصطلح ، هو جودي بن عثمان الذي نقل كتاب الكسائي الى الاندلس ، وكان عمدة الدارسين ردحا طويلا ، حتى وفد الى الاندلس كتاب سيبويه وبزّه ، نقله الافشنيق محمد بن موسى المتوفي سنة (٣٠٧ هـ) رواية عن المازني وعن ابي جعفر الدينوري حين لقيه بمصر وانتسخ على نسخته نسخة لنفسه(٤) ، ثم محمد بن يحيى الرياحي حين نزل مصر يتلمذ لعلماء

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٤٧
(٢) ينظر : مقالة «قضية النحو والنحاة ... للدكتور حسن عون مجلة «المجلة» العدد ١٠/١٥٨
(٣) المدارس النحوية ٣٤٧
(٤) طبقات النحويين واللغويين ٢٨٢

العربية فيها خاصة أبا العباس ابن ولاد وأخاه القاسم بن ولاد ، وقد قرأ الرياحي الكتاب على ابي القاسم ، وهو يقرأ في نسخة ابيه محمد بن ولاد ، وكان ابو القاسم ابن ولاد قد قرأ الكتاب على ابي جعفر النحاس ، وبهذا تكون رواية ابي القاسم بن ولاد للكتاب بطريقتين :

١ ــ طريق ابيه محمد بن ولاد عن المبرد

٢ ــ طريق النحاس عن الزجاج عن المبرد(١)

وكان الرياحي متصلا بالمنطق والفلسفة وعلم الكلام والفقه والطب ، فجعل كتاب سيبويه عمدته في تدريس طلابه شرحا وتوضيحا ، وتفسير ، وعندنا انه اول نحوي اندلسي للنحو حسن الفهم والاحاطة والتأني لمسائل العربية ، قال الزبيدي : «ولم يكن عند مؤدبي العربية ولا عند غيرهم من عني بالنحو كبير علم ، حتى ورد محمد بن يحيى عليهم»(٢) .

اما سائر دارسي العربية الذين صنفهم الزبيدي ست طبقات ، فما كان فيهم احد ممن شغلته العربية او صار عالما يؤثر عنه العلم .

وثانيهما هبوط عدد من العلماء المشارقة على الاندلس حيث كانت بضاعة العلم نافقة لما أحيط به العلماء آنذاك من رعاية الخلفاء والافراد وولاة الأمور في الاندلس ، وبهذا استجاب طائفة من علماء العربية المبرزين ، وفي مقدمتهم ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي .

كان القالي ، فيما نقل الزبيدي ، اعلم الناس بنحو البصريين ، تلمذ لابن درستويه والزجاج وابن السراج ، والأخفش الصغير ، وابي بكر بن دريد وغيرهم ، واكثر الأخذ عن الاخيرين ، وحين نزل الاندلس كان يحمل اسفارا وقراطيس ملاءى بمرويات مشايخه واقوالهم فضلا عن دواوين الشعراء ، وكتب علماء العربية ، كوفيين وبصريين ، وقد قوبل القالي بحفاوة بالغة وأكرمه الحكم بن الناصر وغالى في اكرامه ، وصنف القالي بحفاوة بالغة وأكرمه الحكم لرغائبه(٣) وتخرّج بالقالي جمهور كبير كان في مقدمتهم ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي المتوفي سنة ٣٧٩ هـ .

(١) كتاب سيبويه (ط هارون) ٣/١ ، ٤

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٣١١

(٣) المقصور والممدود ٢ ــ ٤

والزبيدي ابرز علماء العربية الاندلسيين الأوائل ، صنف مختصر العين ، والاستدراك على ابنية سيبويه ، وطبقات النحويين واللغويين ، والواضح في علم العربية . وهذا الكتاب هو اول كتاب اندلسي في النحو يصل الينا .

والناظر في هذا الكتاب يطمئن الى انه كتاب موجز سهل العبارة ، يسير المأخذ على المبتدئين لم يعرض فيه لآراء النحاة ، ولم يعن بالشواهد ولا جرى على ذكر الشاذ ، غير ان عبارته ومصطلحه يشيران الى التماسه المذهب البصري ، وأخذه بأصوله وجزئياته ، ولكنه خالف البصريين وتابع الكوفيين في اشياء منها :

١ ـ تقسيم الفعل الى ماض ، ومستقبل ، ودائم . غير انه خالف الكوفيين في ان المستقبل تمثلهما الصيغة في اولها احدى الزوائد الاربع(١) .

٢ ـ فعل الامر معرب مجزوم ، وليس مبنيا(٢) .

٣ ـ ان (اذن ، وكي ، وحتى ، واللام) تنصب المستقبل بنفسها ، وليس باضمار (أن)(٣) وقد استعملت من مصطلحات الكوفيين : الكناية ، موضع الضمير(٤) والخفض ، موضع الجر(٥) .

ويشيع التسامح في ثنايا الكتاب ، فالزبيدي نحوي مستفيد اخذ من كتب البصريين والكوفيين ، وأثر البصريين في كتابه أبين ، ولكنه لا يتعصب لهؤلاء على هؤلاء ، ولا هؤلاء على هؤلاء ، هذه سمة نحاة الاندلس ، الاوائل ، ثم كانت بعد ذلك سمة سائر النحاة في هذا العصر العربي الاسلامي الذي كان بعيدا عن ميدان التنافس الذي شهدته البيئة العلمية في العراق ، خاصة حاضرة الخلافة بغداد .

ويحق لنا من هذا المنطلق ان نعد اهم الخصائص التي تمتاز بها مدرسة

---

(١) الواضح ٨
(٢) الواضح (٥)
(٣) الواضح ٥٠
(٤) الواضح ٤ ، ٥ ، ٦ ...
(٥) الواضح ١٢ ، ١٣ ، ١٥ .

الاندلس والمغرب في اوليتها لونا من التسامح الذي لم يعرف التعصب والجدل المنطقي ، واذا كان قد وجد سبيله الى نحو المتأخرين من الاندلسيين فانما هو جريان في التيار الذي جرف ، الدارسين الذين اولعوا بالتخريج والتأويل والتعليل ، حتى صار ذلك عندهم في آخر عماد الدرس النحوي ، وما كان النحو ميدانه ولا كان ذا آصرة تشده اليه .

ومضى حين من الدهر ، قبل ان نقف على نحاة قدم راسخة في الدرس النحوي ذلك ان الدارسين عنوا بموضوعات من العربية ، وكان جل انصرافهم اليها ، كأبي الحسن علي بن اسماعيل المعروف بابن سيدة المتوفي سنة ٤٥٨ هـ ، اذ أكب على اللغة اكبابا وصنف فيها :

المخصص وهو كتاب جليل القدر في موضوعات لغوية استقصى فيها استقصاء دقيقا وقد افاد فيه من كتب اللغويين السالفين ، واذا كان فيه مسائل من النحو ، فانها انبثت في الكتاب خلل الموضوعات ومن هنا ، يجمل بنا الا نعده في النحاة ، كما عده بعض الباحثين .

ان النحاة الذين ازدهرت بهم هذه الحقبة ، وتبدأ من منتصف القرن الخامس للهجرة ، هم :

ابو الحجاج يوسف بن سليمان ، المعروف بالاعلم الشنتمري المتوفي سنة ٤٧٦ هـ . له شرح على شواهد سيبويه(١) ، وشرح على ابيات جمل الزجاجي(٢) .

وعبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي المتوفي سنة ٥٢١ هـ ، وهو نحوي ذو عقل لغوي نابه ، له شرح على جمل الزجاجي سماه «اصلاح الخلل الواقع في كتاب الجمل»(٣) صنف كتابا في شرح ابياته واعرابها ، وشرح اسماء قائليها(٤) . وله كتاب «المسائل والأجوبة» في موضوعات مختلفة تدور في تضاعيفها آراء في النحو يتفرد بها وكتب اخرى(٥) .

وما تزال الاندلس والمغرب ينجبان نحاة نشروا لواء النحو العربي ، وما زالوا يتولونه برعاية بالغة ، كابن الباذش المتوفي سنة ٥٢٨ هـ ، وابن الطراوة المتوفي سنة ٥٢٨ هـ ، وابن طاهر المتوفي في حدود (٥٨٠) ، وابي القاسم السهيلي المتوفي سنة ٥٨١ هـ وعيسى الجزولي المتوفي سنة ٦٠٧ هـ ، وابن خروف

---

(١) انظر مقدمة الكتاب : ط : هرون

(٢) انظر مقدمة سعيد عبد الكريم في تحقيقه للحلل : ٢٣

(٣) الحلل : ٢٣ فما بعد : د . سعيد عبد الكريم ط : ١٩٨٠

(٤) نفسه

(٥) نفسه

المتوفي سنة ٦٠٩ هـ . وأبي علي الشلوبين المتوفي سنة ٦٤٥ هـ وابن عصفور المتوفي سنة ٦٦٣ هـ .

وهؤلاء النحاة جميعا يتميزون بما يأتي :

١ ـ الميل الى التعليلات والتفريعات والتأويلات البعيدة ، وتحكيم المنطق في قضايا النحو ومسائله ولسنا موقنين ان هذا الاتجاه يكشف جوهر الدرس النحوي ، او يبين عن طبيعته اللغوية باعتباره ظاهرة حيوية . ولقد ابعد بعض الدارسين المحدثين حين نسب هذه الطائفة الى البغدادية[1] ظنا منه ان هذا الاتجاه دليل على الاستقلالية ، والميل الى التفرد ، والموازنة ، والاختيار .

ومن دلائل عقم هذا الاتجاه ان وضع عيسى الجزولي مقدمة في النحو ، سماها ، (القانون) وشهرت باسم المقدمة الجزولية جمعها من احاديث وتعليقات على جمل الزجاجي لشيخه ابن برى[2] أبهم فيها حد الاغلاق ، وجعلها رموزا ، وأحاجي لما فيها من تعمل منطقي قاس .

٢ ـ وان عناية هذه الطائفة قد انصبت على كتب البصريين ، بالشرح او التلخيص او شرح الشواهد خاصة كتاب سيبويه[3] وجمل الزجاجي[4] .

٣ ـ ان النحاة الاندلسيين والمغاربة ، كانوا شارحين ومعلقين واصحاب حواشٍ ، ولم يؤلف احد منهم كتابا ابتداعا الا في القليل النادر .

ومن ثمة نرى :

١ ـ ان الدرس النحوي في الاندلس ، كان بصريا في الاتجاه العام ، مع ميل ظاهر الى ابراز الشخصية الاندلسية فيما يعرضون له من تعليلات وتوجيها ، ولم يكن الجديد الذي آل الينا جديدا حقا . وليس عدولهم عن «بعض آراء المشارقة في النحو[5] » بمانحهم حق الانتماء بمدرسة مستحدثة رابعة[6] .

(١) المدارس النحوية ٢٩٢ وما بعدها .
(٢) كشف الظنون ٢/١٨٠٠ ، ١٨٠١ ، ورأى صاحب الكشف انها مقدمة من مقدمتين صنفها الجزولي . وينظر ابن الحاجب النحوي ١١٥
(٣) ينظر : تراجم النحاة السابق ذكرهم .
(٤) ينظر : بروكلمان ٢/١٧٣ ـ ١٧٥
(٥) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ٢٢٠
(٦) نفسه ٢٢٠

٢ ـ وان التعقيد ، والانصراف الى التلعب بالالفاظ وتقليب الكلام على وجوهه المختلفة والاغراب في التأويل ، قد أثار رد فعل شديد عند نحوى نابه هو «ابن مضاء القرطبي» .

ابن مضاء القرطبي ، والدعوة الى التيسير :

ابن مضاء هو ابو العباس احمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمي المتوفي سنة ٥٩٢ هـ

كان قاضي القضاة في مراكش ، وكان على المذهب الظاهري . ضاق ابن مضاء باساليب النحاة وعقم دراساتهم ، بسبب من ايغالهم في التمسك بنظرية العامل . وصنف في ذلك ثلاثة كتب :

اولها : تنزيه القرآن عما لايليق بالبيان وقد ناقضه ابن خروف في كتاب سماه «الزهو في تنزيه ائمة النحو عما نسب اليهم من الخطأ والسهو[١]» .

والثاني : الرد على النحاة[٢]، دعا فيه الى تيسير النحو العربي ، وتخلصه مما علق به من شوائب والكتاب على وجازته يعد ثورة في الدرس النحوي ، وكانت ثورته هذه قائمة على عدة اعمدة :

١ ـ الغاء نظرية العامل[٣]

٢ ـ الغاء القياس

٣ ـ الغاء العلل الثواني والثوالث[٤]

٤ ـ الغاء التمارين غير العملية

٥ ـ منع التأويل والتقدير

وقال في اول الكتاب : «قصدي من هذا الكتاب ان احذف من النحو ما يستغني النحوي عنه وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه .»[٥]

ان الذي حفز ابن مضاء على تأليفه هذا ما وجده من عقم الدرس النحوي ، ومرده الى انه كان ظاهرة المذهب في الفقه . وفكرة هذا المذهب انه يأخذ بظاهر الكتاب والسنة[٦] من غير تأويل ولايميل الى التعليل والاستنتاج والدليل

(١) الديباج المذهب ٢١٠/١ ، بغية الوعاة ٣٢٣/١

(٢) نشره الدكتور شوقي ضيف عام ١٩٤٧ وقدم له بدراسة مطولة

(٣) الرد على النحاة ٨٥

(٤) الرد ١٥١

(٥) الرد ٨٥

(٦) ابن حزم ، حياته وعصره ، آراؤه وفقهه محمد ابو زهرة ٥٢١ .

على ذلك ماذكره ابن حزم في كتابه «التقريب لحد المنطق» «واما علم النحو فيرجع الى مقدمات محفوظة عن العرب الذين تزيد معرفة تفهمهم ، واما العلل فيه ففاسده جدا»[1] . وذهب بعض الباحثين الى ان دعوته كانت فوق ذلك تعبيرا عن تأثره بالمذهب الكوفي عند الكوفيين الاوائل[2] الذين كان الدرس النحوي عندهم وصفا ورواية وسماعا ، واعتبارا للظواهر ، لاتعليلا للبحث النحوي .

غير ان الادلة المقدمة لاسناد هذا الرأي ليست كافية وايثاره «اراء الكوفيين في بابي التنازع على تخرصات البصريين»[3] لاتنهض رأيا قويا لتوكيد كوفيته . لان جمهور الكوفيين كانوا يعللون ، وكانوا يحتكمون في احيان كثيرة ، الى نظرية العامل ، مع عناية ظاهرة بالقياس . وكان الكسائي الذي وافقه ابن مضاء في الغاء تقدير مايتعلق به ، الظرف او المجرور وانكار علة رفع الفاعل[4] ، نقول : لقد كان الكسائي نفسه متمسكا بالقياس وقد أثر عنه قوله : انما النحو قياس يتبع[5] .

وقد لزم النحاة القياس في النحو ، واختلفوا في التطبيق تضييقا او انفراجا وسعة ، وكان القياس الكوفي اوسع من القياس البصري ، كما مر .

واذا كان ابن مضاء قد وافق الكوفيين في مسائل ، فان ذلك يلمح الى انه كان قد قرأ كتب الاولين قراءة متأنية فاحصة واحسن فهمها وتمثلها ، فوجد عند الكوفيين آراء قريبة من اتجاهه ونظراته .

واذا كانت دعوة ابن مضاء قد خبت في خضم الاتجاه المنطقي المعلل السائد ، فقد تردد لها رجع في العصر الحديث ، وكانت منطلق دعاة التيسير في ارجاء الوطن العربي في أيما قطر عربي ظهر فيه باحث يدعو الى اصلاح الدرس النحوي ، او تيسير سبل تعلم النحو والانتفاع به . ولعلنا نتفق مع الرأي القائل بانه لو كتب لدعوة ابن مضاء ان تروج وأن تشيع ، وان تصبح منهجا متبعا وسبيلا مطروقة ، لحق لنا ان ننسب هذا المنهج تجوزا الى مدرسة ذات اصول وقواعد ، ندعوها انذاك بالمدرسة الاندلسية[6] ، غير ان اكفاءه دعوة ابن مضاء

(١) من تاريخ النحو ـــ سعيد الأفغاني ١٠٣ . التقريب لحد المنطق ٢٠٢ ، ١٦٨
(٢) الدرس النحوي في بغداد ١٧٩ ـــ ١٨١ . وينظر ابو زكريا الفراء ٤٢٣
(٣) اللغة العربية وعلومها ١٢٠ ، ١٢١
(٤) الدرس النحوي ١٧٨/١٧٩
(٥) بغية الوعاء ١٦٤/٢
(٦) ينظر : من تاريخ النحو ١٠٤ ، ١٠٥ ، في اصول النحو ٦٨

ومصيرها الى صوت مالبث ان خبا ، قد ابعدها عن ان تكون مدرسة ذات طابع متميز .

اذا كانت دعوة ابن مضاء قد خبت ، فقد اومضت بعد حين عند نحوى اندلسي نابه هو ابو حيّان الاندلسي المتوفي سنة ٧٤٥ هـ .

وابو حيان هو اثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي ، ترك الاندلس في شبيته ، بعد تفقهه بالعربية والقراءات ، وتمذهب على الظاهرية ، وجوّل في افريقيا والاسكندرية والقاهرة والحجاز والتقى بجمهور جم من مشايخ عصره ، وانتفع بهم كما انتفع بعلمه خلق كثير ، وكان من حذّاق علماء العربية[١] ، أتقن اكثر من لسان وعرف اسرار اكثر من لغة كالحبشية والفارسية .

لقد برم ابوحيان بالنحاة المناطقة برما شديدا ، وضاق بتعليلاتهم وكشف عن سوء تفكير عدد منهم حين اخضعوا النحو لتعمّلات الفقه والمنطق ، وتمحلهم في التأويل[٢] اذ لم يجد شيئا من ذلك في اللغات التي اتقنها .

وقد تعرض ابو حيان لتوجيهات النحاة ، وتقديراتهم ، واهتمامهم بالتمارين غير العملية ، وانكر ذلك عليهم انكارا شديدا[٣]

وكان يقدم السماع على القياس ، اذا تعارضا ، ويفزع الى السماع[٤] . لانه اولى بالاتباع لمجيئه على لسان العرب رواية على ان أبا حيان لم يسلم احيانا من الانسياق في تيار النحاة المناطقة ولعله كان مرغما على ذلك ، لكثرة ماقرأ في كتبهم ، وأطلع على تعبدهم بالعامل ، والتقدير والتعليل ، ولانه كان مترسما خطي سيبويه متأثرا به الى حد بعيد .

ومن هنا يعد ابو حيان نحويا بصريا في الاتجاه العام ، مع وضوح شخصيته وكان يميل في تآليفه الى الاستقصاء والاحاطة وذكر الاراء حتى لقد حفظ لنا اقوالا درست ، مصادرها ، نرى ذلك في «التذييل والتكييل» شرحه على تسهيل الفوائد لابن مالك ومختصره «ارتشاف الضرب» الذي كان الرافد الذي استقى منه السيوطي في كتابه «جمع الجوامع» ، وشرحه «همع الهوامع» .

---

(١) ينظر : بغية الوعاة ١/٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٢) ينظر : منهج السالك في الكلام على الفية ابن مالك ٢٣٠

(٣) ينظر : همع الهوامع ١/١٥ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٥٦ ، ٥٧ والمدارس النحوية ٣٢١ ، ٣٢٢

(٤) ينظر : المدارس النحوية ٣٢٢ ، وقال ابو حيان في «منهج السالك» ٢٢٩ ، في علة منع التقديم : «فانت ترى في هذه التعاليل لمن منع التقديم ، وهي معارضة للسماع ، والتعليل انما ينبغي ان يسلك بعد تقرّر السماع» .

الباب الثاني

المعجمات العربية

لابد قبل الخوض في الكلام على المعجم العربي واصالته ، ومناهج المؤلفين العرب فيه ، وبيان مميزات كل معجم منها ، ان نعرف شيئا عن مصطلح (المعجم) ، وتاريخ اطلاقه لاول مرة في العصور الاسلامية المتقدمة على هذا الجنس من التأليف اللغوي عند العرب .

من المعروف ان اي كتاب يضم بين دفتيه مفردات لغة ما في موضوع خاص من موضوعاتها ، او في جميع انواعها وموضوعاتها مرتبة ترتيبا معينا ، ومشروحة شرحا مقترنا ببيان الدلالات ، وطريقة النطق ، وكيفية الاستعمال ، وشواهد ذلك كله في الكلام الصحيح ، يسمى عند المشتغلين باللغة «معجما» وعلى هذا كان من خصائص المعجم ــ اذن ــ ان تتوافر فيه : «المفردات اللغوية» و«الترتيب والتنظيم على نمط خاص» و«الشرح والتفسير» و«سرد الامثلة والشواهد» والا لم يصحّ تسمية الكتاب بهذا المصطلح . فهل كان اطلاقه مصاحبا لاول معجم عربي عرفته اللغة العربية ؟

لقد اطلق مصطلح (المعجم) لاول مرة على الكتب التي الفها رجال الحديث في شيوخهم ورواة احاديثهم ، فقد ذكر ان اول كتاب اطلق عليه هذا الاسم هو «معجم الصحابة» ، لابي يعلى احمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن غيس بن

هلال الموصلي الحافظ ، محدث الجزيرة ، ولد سنة ٢١٠ ه وتوفي سنة ٣٠٧ هـ ، ثم كتابا «المعجم الكبير» و«المعجم الصغير» لابن بنت منيع ابي القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى المحدث ، ولد سنة ٢١٤ هـ ، وتوفي سنة ٣١٥ هـ [١]

وهذا يعني ان لفظ «المعجم» كان معروفا عند علماء القرن الثالث الهجري على انه كتاب يضم اسماء واعلاما تكون بمثابة مفردات له ، مصحوبة بتعريف بكل اسم منها ، ومرتبة ترتيبا معينا ، وهذه الصفات جميعها تدخل في تعريف المعجم المخصص للغة . ولم يكن هناك كتاب معجمي في اللغة سمي بهذا الاسم الا كتاب «معجم مقاييس اللغة» لاحمد بن فارس المتوفي سنة ٣٩٢ هـ .

على ان لفظة (معجم) نفسها كانت معروفة عند العرب باكثر من دلالة فهم يقولون :«اعجمت الكتاب» ويريدون : «ذهبت به الى العجمة»[٢] ويقولون : «حروف المعجم «ويريدون : «حروف الاعجام» فيجعلونها مصدرا ميميا . او يريدون «حروف الموضع المعجم «فتكون صفة المكان الذي وقع فيه الاعجام .

والمعجم اسم مفعول من «اعجم» الحرف ، اذا نقطه ، فبيّنه واوضحه ومن هنا كان اطلاق لفظ «حروف المعجم» بمعنى : حروف «الموضع الذي تعجم فيه الحروف» ، اي تنقط ، اقرب الى الصواب .

ولعل سائلا يسأل : ان حروف اللغة نوعان ، معجم وغير معجم ــ مهمل ــ فكيف جاز اطلاق لفظ : (المعجم) على جميعها ؟

يقول ابن منظور : «انما سمّيت بذلك لان الشكل الواحد اذا اختلفت اصواته ، فاعجمت بعضها وتركت بعضها ، فقد علم ان هذا المتروك بغير اعجام هو غير ذلك الذي من عادته ان يعجم ، فقد ارتفع ــ ايضا ــ بما فعلوا الاشكال والاستبهام عنهما جميعا ، ولافرق بين ان يزول الاستبهام عن الحرف باعجام عليه او مايقوم مقام الاعجام في الايضاح والبيان . الا ترى انك اذا اعجمت الجيم بواحدة من اسفل والخاء بواحدة من فوق ، وتركت الحاء غفلا ، فقد علم باغفالها انها ليست بواحدة من الحرفين الاخرين . اعني الجيم

(١) الصحاح ومدارس المعجمات : ٥٠

(٢) اللسان (عجم) : ٢٨٠/١٥ فما بعد .

والخاء . وكذلك الدال والذال ، والصاد والضاد ، وسائر الحروف ، فلما استمر البيان في جميعها جاز تسميتها حروف المعجم »[١]

وتدلنا بعض الاخبار المروية عن رسول الله ــ ص ــ وصحابته ان اطلاق حروف المعجم على حروف العربية امر مألوف عندهم فقد نقل الزمخشري في الفائق «سأل رجل عن رجل لهز رجلا لهزة فقطع بعض لسانه ، فعجم كلامه ، فقال عطاء : يعرض كلامه على المعجم ، وذلك تسعة وعشرون حرفا ، فما نقص كلامه من هذه الحروف فسمّت عليه الدّية»[٢]

وفي تفسيرها يقول الزمخشري : «المعجم حروف ا ب ت ث ، سمي بذلك من التعجيم ، وهو ازالة العجمة بالنقط [٣] »

ويقوّى مذهبنا الى ان (المعجم) لفظ متقدّم في المعنى الذي نقصد اليه ما اورده حاجي خليفة[٤] عن ابي ذر الغفارى ــ رض ــ انه قال : «يارسول ، اي كتاب انزله الله على آدم ــ عليه السلام ــ ؟ قال : كتاب المعجم ، قلت : اي كتاب المعجم ؟ : قال : ب ت ث ج ، قلت : يارسول الله ، كم حرفا ؟ قال : تسعة وعشرون حرفا »

وعلى الرغم من اننا اوردناه هنا يدل على سلفية هذا المصطلح وقدمه الا ان هناك ما يشير الى ان هذا الترتيب الذي ذكره الحديث وخبر عطاء للحروف على ب ت ث ج ... الخ كان قد عرف في منتصف القرن الاول الهجري تقريبا على يد النصر بن عاصم الليثي المتوفي (٨٩ هـ) اي بعد وفاة الرسول ــ ص ــ وربما كان هذا الترتيب من فعل الرواة بعد ان استقر عندهم ترتيب النصر بن عاصم ، واصبح مألوفا لدى علماء العربية ورواة الحديث ، والمفسرين .

ومهما كان من امر ، فان دلالة لفظ : (المعجم) على حروف اللغة العربية ، لازالة مبهمها ، وايضاحها ، هو اقرب الوجوه التي تلائم استخدامه مصطلحا لكتاب يجمع هذه الحروف في مفردات مشروحة ومرتبة ترتيبا خاصا .

ولم يستخدمه الرواد الاوائل كالخليل بن احمد وابي عمرو الشيباني على كتابيهما (العين) و(الجيم) بل كان اطلاق لفظ (كتاب) هو المتداول المعروف عندهم ، ولعله كان معروفا عند العامة ب(المعجم) وان لم يطلقه المؤلف ، ثم

---

(١) اللسان : ٢٨١/١٥ (عجم)

(٢) الفائق : ٣٣٧/٣ والنهاية لابن الاثير (نهر) .

(٣) نفسه .

(٤) كشف الظنون : ٢٥/١

اتخذ سبيله الى كتب الحديث ـــ اولا ـــ كما راينا عند ابي يعلى والبغوى ثم المرزباني (٣٧٨ هـ) الذي سمى كتابه «معجم الشعراء» يقول ياقوت : «المعجم ذكر فيه الشعراء على حروف المعجم ، فيه نحو خمسة الاف اسم ، وهو من الف ورقة»[١]

ثم كثر استعمالها في انواع كثيرة من التأليف ، فوضع الزمخشرى (٥٣٨ هـ) «معجم الجدود»[٢] ومحد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن (ولد سنة ٥٧٨ هـ وتوفي سنة ٦٣٠ هـ) الذي وضع كتابه : «معجم الشيوخ[٣] » وياقوت الحموى (٦٢٦ هـ) الذي وضع كتابه (معجم الادباء) وغيرهم .

اما اطلاق لفظ (قاموس) على هذا النوع من التأليف في اللغة ، فقد عرف متأخرا ، ولعل اول من اطلقه هو مجد الدين الفيروزآبادى محمد بن يعقوب المتوفي سنة (٨١٧ هـ)[٤] اذ سمى كتابه (القاموس المحيط والقاموس الوسيط) واراد بهذا الاسم اطلاق صفة السعة وبعد الغور في اللغة ، وذلك ان معنى (القاموس) في اللغة هو البحر ، او ابعد موضع فيه غورا . واما القاموس ، فتعني الجميل[٥] الوجه الحسن اللون ، وربما اراد فاعولا من القبس وهو شعلة النار .

ولقد اتخذت لفظة (قاموس) شيوعا كبيرا في عصرنا الحاضر ، واستخدمها واضعو المعجمات اللغوية والعلمية كثيرا منها (قاموس الاعلام) ، و(قاموس الرجال) و(قاموس الجيب) وغيرها ، حتى اصبحت الغلبة لها على لفظ (معجم) .

العرب والتأليف المعجمي

لقد كان للأمم غير العربية معجمات للغاتها ، وضعتها لحصر مفرداتها ، وقواعدها ، فقد عرف عن الاشوريين انهم اهتموا باللغة ، وحصروا مفرداتها في

(١) معجم الادباء لياقوت : ٥٢/٧ (ط : مرجليون) .
(٢) نفسه : ١٥١/٧
(٣) نفسه : ١٠٤/٧
(٤) مقدمة القاموس المحيط : ٨/١
(٥) القاموس المحيط : ٢٥١/٢ و ٢٣٦/٢ (قبس)

معجمات سبقت وضع المعجم العربي بما يزيد على الفي عام من ظهور اول معجم عربي ، والمعروف ان الاشوريين من اصول عربية خرجت من الجزيرة .
وكما كان للاشوريين معجم ، كان للصينيين واليابانيين واليونانيين معجمات ايضا ، في اصناف المعارف في اللغة ، وضعت للحفاظ على تراثهم اللغوي واصول اللغة وقواعدها . فاما الصينيون فلهم معجمات كثيرة اقدمها معجم : (يوبيان) yupien لمؤلفه كويي وانج Kuye Wang طبع سنة (٥٣ بعد الميلاد ، ثم معجم آخر اسمه شوفان Shwowan وضعه هوشن Hu-Shin وطبع سنة ١٥٠ قبل الميلاد ، وهما اساس معجمات الصين واليابان[١] .

اما اليونان فقد عرفت المعجم منذ عصور متقدمة ، وذكر كثير من الدارسين ان اليونان قد وضعوا عشرات المعجمات في مختلف صنوف المعرفة ، بعضها على الحروف الهجائية وبعضها في ترتيب خاص ، وكان لعلماء الاسكندرية في عهد البطالسة ، وبعدهم معجمات خاصة في فهرست مفردات كتب افلاطون الفلسفية ، والخطباء الاتيكيين العشرة ، او كتب بقراط . اما بعضها الاخر فقد وضع في مفردات اللغة عامة[٢] .

ومن المعجمات التي وضعها اليونان معجم : يوليوس بولكس Jilius Pollux وهو معجم ألفه على الموضوعات والمعاني ، ككتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ هـ) وكتاب (فقه اللغة للثعالبي (٤٢٨ هـ) وكتاب (المخصص) لابن سيدة (٤٥٨ هـ) مما الف على الموضوعات والمعاني في العهود الاسلامية .

وذكر احمد عبد الغفور عطار جملة من معجمات اللغة اليونانية والمصرية نشير اليها هنا ، مكتفين بسردها .

فمنها : «معجم فاليريوس فيلكس Valerius Flaccus وكان في عهد الامبراطور اغسطس بعنوان : «معاني الألفاظ» وله موجز موجود حتى اليوم .
و «معجم اللهجات والمحليات» لهزيشيوس السكندري Hesyehius الفه في القرن الرابع الميلادي .
ومعج «ما أتفق لفظه واختلف معناه» لامونيوس السكندري Ammonius ومعجم في (الاشتقاق) ، لاربون الطيبي المصري ــ عاش بين (٣٩٠ و ٤٦٠)

---

(١) الصحاح ومدارس المعجمات : عطار : ٥١ ــ ٥٢
(٢) نفسه : ٥٢

الميلادية . وقد طبع هذا المعجم سنة ١٨٢٠ م في لايبزج(١) .
وفي القرن العاشر الميلادي وضع ابولونبوس معجما في اليونانية ، وهو اقدم معجم في مفردات اللغة اليونانية العامة(٢) .
اما في اللغات الاوربية الحديثة ، فيبدو أن التأليف في المعجمات بها قد جاء متأخرا ، يقول احمد عطية الله : «ولم يتقدم وضع المعجمات في اللغات الاوربية الا في العصور الحديثة ، من هذا ان اول معجم في اللغة الانجليزية ، وضعه الدكتور جونسون عام ١٧٥٥ م ، وفي امريكا ما وضعه وبستر عام ١٨٢٨(٣) .
وهذا يعني ان السبق الى وضع المعجمات على الصيغة التي تدل على نضج العقلية اللغوية ، كانت للعرب ، حيث وضعوا معجمات عامة في اللغة بمناهج مختلفة ، واستقصاء تام لمواد اللغة . على ان هذا السبق لم يتعد منتصف القرن الثامن الميلادي ، اذ وضع الخليل بن احمد الفراهيدي (١٧٥ هـ) معجمه العين ووضع ابو عمرو واسحاق بن مرار الشيباني الكوفي (٢٠٦ هـ) معجمه (الجيم) في زمن واحد تقريبا ، اما قبلهما فلم يعرف العرب المعجمات ولا دار في خلدهم ان يضعول لغتهم في كتاب بغية الحفاظ عليها ، او تفسير مفرداتها ، وذلك انهم كانوا اميين ، وكانت اللغة التي يتفاهمون بها سليقة وطبعا ، ينقلون آدابها رواية وشفاها ، فلا تدعوهم حاجة الى سؤال عن معنى غامض ، ولا يضطرهم خوف من ضياعها الى تدوينها وتقييد نصوصها .
غير ان هذه الحال قد تغيرت بعد الاسلام ، فقد طرح الدين الجديد مفاهيم جديدة ، ومصطلحات محدثة . وغيّر كثيرا من دلالات الالفاظ ومعانيها اذ خرجت جملة من مفردات اللغة من معانيها الحقيقية الى معان مجازية لم يألف مثلها العربي في جاهليته ، واختلط العرب بغيرهم من أمم الارض ، فادى ذلك الى دخول كثير من المفردات غير العربية الى لغة اللسان والتخاطب والكتابة ، وكثر الملحون والمزال والمفسد والمحدث والغريب والاعجمي بحيث تعذر على كثير من الناس التمييز بين الصريح والهجين منها .

---

(١) الصحاح ومدارس المعجمات : ٥٣ ، وقد ذكر المؤلف مصادره التي ترجم منها هذه المعلومات
(٢) انظر : دائرة المعارف الحديثة (مادة عجم) : ص ٦٣٨ (ط : ١ ، سنة ١٩٥١ م) .
(٣) دائرة المعارف الحديثة : ٦٣٨ .

ثم كان غير العرب من الأمم الداخلة في الاسلام احوج الناس الى فهم لغة القرآن والحديث وآداب العربية ، اذ كان من أسس الدين الاسلامي ان يتقن المسلمون اللغة العربية ليتيسر لهم فهم لغة القرآن ، وصحة تلاوته والاحاطة بقراءاته التي كانت تمثل صورة من اجلى صور اللهجات العربية الفصيحة ، ولعلنا نستطيع ان نعرف اهم الدوافع الى العناية باللغة ووضعها في معجم يحفظها ، وييسر فهمها ، ويقربها الى ذوي الحاجات في عصورها المتقدمة مما ذكره الازهري في مطلع كتابه (تهذيب اللغة) حيث يقول : «نزل القرآن الكريم . والمخاطبون به قوم عرب ، اولو بيان فاضل وفهم بارع ، انزله ــ جلّ ذكره ــ بلسانهم . وصيغة كلامهم الذي نشأوا عليه وجبلوا على النطق به فتدربوا به ، يعرفون وجوه خطابه ، ويفهمون فنون نظامه ، ولا يحتاجون الى تعلم مشكله ، وغريب الفاظه حاجة المولدين الناشئين ، فيمن لا يعلم لسان العرب حتى يعلّمه ، ولا يفهم ضروبه وامثاله ، وطرقه ، واساليبه ، حتى يفهمها[١] .

وكان الحال في زمن الرسول ــ ص ــ ان اغناهم النبي عما احتاج اليه المتأخرون ، من بيان مجمل او غامض او متشابه من القرآن ، او سائر اللغة .
وحين كثرت الشبه (الداخلة على كثير من رؤساء اهل الزيغ والالحاد ، ثم على رؤوس ذوي الاهواء والبدع ، الذين تأولوا بآرائهم المدخولة فاخطأوا ، وتكلموا في كتاب الله ــ جل وعز ــ بلكنتهم العجمية دون معرفة ثابتة ، فضلوا وأضلوا»[٢] كانت الحاجة تشتد اكثر فاكثر حتى كان «تعلم العربية التي بها يتوصل الى تعلم مابه تجرى الصلاة من تنزيل وذكر ، فرضا على عامة المسلمين ، وان على الخاصة التي تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون اليه لدينهم والاجتهاد في تعلم لسان العرب ولغاتها التي بها تمام التوصل الى معرفة مافي الكتاب والسنن والاثار ، واقاويل المفسرين من الصحابة والتابعين من الالفاظ الغريبة والمخاطبات العربية»[٣]
ومن مجمل الدوافع التي لخصها الازهري في مقدمة تهذيبه يتبين لنا ان الاتجاه الى وضع المعجم العربي تنحصر في الامور الاتية :

---

(١) التهذيب : ٣/١ ــ ٤
(٢) التهذيب : ٤/١
(٣) نفسه : ٥/١

١ ـــ ان حفظ لغة العرب اساليبها وفصاحتها ، واجب ديني مفروض ولاريب من ان العربية من الدين[١] ، لكونها لغة القرآن ، ولذلك كان اول كتاب نسب الى ابن عباس هو غريب القرآن .

٢ ـــ احتياج الامم الداخلة في الاسلام الى فهم لغة العرب ليفهموا لغة القرآن ، والسنن والآثار ، واقاويل المفسرين من المقدمين .

٣ ـــ تهذيب اللغة ، مما دخلها من الغريب ، ونفي الشّبه ، المدخولة والغريبة ممن تأول في اللغة من غير معرفة ولافهم ولاعلم فيها ، وبيان الصحيح منها .

٤ ـــ حفظ اللغة من تشويه اهل الزيغ والالحاد وذوي الاهواء والبدع ، ومن اللكنة العجمية[٢] ، واخطائهم التي تكون خطرا ينذر بضياعها ، وفقدان اساليبها الاصيلة ، فيضلون ويضلّون . يقول الجاحظ في اللكنة التي تقع في لسان العربي وغيره : «اذا دخل بعض حروف العجم في حروف العرب ، وجذبت لسانه العادة الاولى الى المخرج الاول»[٣] كانت اللكنة التي حاذرتها العربية منذ مطلح القرن الاول الهجري ، وكان اللحن الذي نبه الرسول ـــ ص ـــ الامة الى مجاهدته ، بقوله : «أرشدوا اخاكم فقد ضلّ» عندما سمعه في لسان اللاحن .

ان الدافع المحض لوضع الدراسات اللغوية الاولى كان دينيا ، وكان هذا الدافع نفسه هو الذي ادّى اخيرا الى التفكير في وضع المعجمات ، لضبط مفردات اللغة ، وحصرها المواد المستعملة ، منها في كلام العرب ، ثم ضبط دلالاتها ومعانيها في عصور استعمالاتها عندهم .

---

(١) انظر مقدمة طبقات النحويين للزبيدي ص ٣ فما بعد

(٢) انظر في موضوع اللكنات واللثغات ما نقله الجاحظ في البيان والتبيين : ٨٤/١

(٣) البيان والتبيين : ٣٩/١ ـــ ٤٠

مراحل تأليف المعجم العربي

لقد سبق ان اشرنا لك الى ان هناك كتابا في لغة القرآن منسوبا الى ابن عباس بعنوان : « غريب القرآن » ذكر بروكلمان ان منه نسخة مخطوطة في برلين [١] ، فاذا صح ذلك فهذا يعني ان الاتجاه المعجمي عند العرب كان واضحاً منذ مطلع المئة الهجرية الاولى ، ولكنه اتجاه خاص بلغة هذا الكتاب المقدس ، ولم يتعدها الى عامة اللغة ، غير ان الاخطار التي داهمت اللغة بعد انتشار العرب في اقطار الارض ، وبعد ان تعرضت لغة القران من جهة وعامة اللسان العربي من جهة اخرى الى اللحن والوهم .

ولقد حصل لقراء القرآن ، وحملة قراءاته عن رسول الله والصحابة الاوائل انهم اختلفوا في القراءات ، كما اختلفوا في تفسير بعض مفرداته فقد فات عمر بن الخطاب ــ رض ــ معرفة كلمة (أب) في قوله تعالى « وفاكهة وأبّا » [٢] . فقد روى الزهري عنه انه قرّ هذه الاية ، فقال : « كل هذا قد عرفنا ، فما الأبّ ؟ ثم رفض عصا كانت بيده ، وقال : هذا لعمر الله التكلف ، وما عليك يا ابن ام عمر ان لا تدري ما الأبّ ؟ ثم قال : اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ، وما لا فدعوه » [٣] .

ورووا عن ابي بكر الصديق في هذه اللفظة ، انه سئل عنها فقال : « أي سماء تظلّني ؟ وأي ارض تقلّني ، اذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به » [٤] فهذان صحابيان كانا اقرب الناس الى رسول الله ــ ص ــ ولم يكن عندهما علم ببعض الفاظ القرآن ، وكما فات ابا بكر وعمر ــ رض ــ ذلك ، فقد فات ابن عباس ، وهو حبر الامة ، وعالمها ، معنى لفظة (فاطر) حين وردت في قوله تعالى « قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السماوات والارض وهو يطعم ولا

---

(١) تاريخ الأدب العربي : ٧٣١/١

(٢) آية : ٣١ سورة (عبس)

(٣) الكشاف : الزمخشري : ٧٠٤/٤ ــ ٧٠٥

يطعم ... [1] الآية . فقال : « ما عرفت ما فاطر السموات والارض ، حتى اتاني اعرابيان يختصمان في بئر ، فقال احدهما انا فطرتها ، أي ابتدعتها » . [2] .

وكما كان هذا في المتقدمين ، فقد كان الاكثر عند المتأخرين ، واما الاختلاف في القرات ، فهو كثير ايضا ، فالاية المتقدمة (فاطر السماوات) ، مثلا ، تقرأ بالجر صفة (الله) ، وقرئت بالرفع على المدح . وقرأها الزهري (فطر السماوات) [3] ومثل ذلك قراءة (معايش) بالهمز من قوله تعالى : « ولقد ملكناكم في الارض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون [4] » ، فقد قرأها ابن عامر بالهمز : (معائش) على التشبيه بصحائف ، والوجه فيها تصريح الياء لانها جمع (معيشة) وهو ما يعايش به من المطاعم والمشارب وعلى هذا فياؤها اصلية ، اما (صحائف) [5] فياؤها زائدة ، ولا وجه للتشبيه بينهما . فمثل هذا كثير في القرآن ولغته ، مما ادى الى اختلاف وجوه القراءات ، فضلا عن ان بعض هذه القراءات لا نرى لها وجها في قياس اللغة وقواعدها ، مما دعا الكثير من العلماء والمعنيين ، بلغة القرآن خاصة ، واللغة عامة الى الاهتمام بوضع ضوابطها من جهة ، كما رأيت في موضوع نشأة الدراسات النحوية والصرفية ، والى وضع مفردات اللغة في معجمات تضبط بها المفردات وتحدد دلالاتها ومعانيها ، التي بدأ المسلمون يفقدون الشيء الكثير منها كما اشتدت الحاجة اليها من الشعوب والامم التي دخلت الاسلام ، فاحتاجت الى اتقان اللسان العربي ، الذي به يتوصلون الى اتقان لغة الكتاب والسنة .

فكان صنيع ابن عباس : اذن — في تفسير لغة القرآن ، هو جزء من الجهود التي بدأت الامة تبذلها في المسيرة اللغوية الطويلة .

وقد كان هذا الصنيع نواة لائمة اللغة في اواخر القرن الاول ومطلع القرن الثاني عندما بدأ الاتجاه الى ينابيع اللغة الاولى من الرواة والنقلة والحفظة يحفظون ما يسمعون ويروون هذا المسموع .

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٤
(٢) الكشاف : ٩/٢
(٣) نفسه : ٩/٢
(٤) الاعراف : ١٠
(٥) الكشاف : ٨٩/٢

وكان هذا هو الطور الاول في نقل اللغة من افواه الاعراب ولكن الظروف الاجتماعية والثقافية وتعقد الحياة ، وكثرة استعمالها فرض على رواة اللغة والمشتغلين بها ان يبدأوا بالتدوين ، وان يصحبوا معهم دفاتر واوراقا ومحابر ليقيّدوا فيها نصوص اللغة ، ويرجعوا من البادية وقد امتلأ عيابهم بما سمعوه فدونوه ، وهذا الاصمعي (١٢٣ هـ — ٢١٦ هـ) وابو عمرو الشيباني (٩٤ هـ — ٢٠٧ هـ) وابو زيد الانصاري (٢١٠ هـ) وابو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) وابان بن تغلب بن رياح ابو سعيد البكري الحريري (١٤١ هـ) [١] وغيرهم .

فابو عمرو الشيباني اسحاق بن مرار دخل الاعراب مبكرا ، وكان يأخذ معه وستيجتين من الحبر ، فما يخرج من البادية حتى يفنيهما [٢] ، وابو عمرو بن العلاء كتب نصوص اللغة من افواه الاعراب ، حتى بلغت بيتا الى سقفه الى غير ذلك من الاخبار حول رواية اللغة وتدوينها ، ولكنه تدوين كما يبدو يحتاج الى دقة وتنظيم ، فلا بدّ لامثال هذه النصوص ان تكون في موضوعات متميزة من فروع اللغة ، ويبدو ان هذا التنظيم بدأ يظهر شيئا فشيئا خصوصا في تمييز انواع اللغة بعضها عن بعض ، وكان (الغريب) و (النوادر) من موضوعات اللغة هما الفنين المتميزين بالتأليف المبكر عند علماء العربية ولذلك رأينا ابان بن تغلب الحريري يضع كتابا في (غريب الحديث) [٣] . ويضع يونس (١٨٠ هـ) كتابا في (النوادر) [٤] كما يضع الكسائي (١٨٩ هـ) كتابا في (النوادر) [٥] ايضا ، ويكثر هذا النوع من التأليف فيشارك فيه أئمة اللغة كالاصمعي وابن الاعرابي (٢٣١ هـ) والفراء (٢٠٧ هـ) وقطرب (٢٠٤ هـ) والهيثم بن عدى (٢٠٧ هـ) واليزيدي (٢٠٦ هـ) .

وأما في الغريب فقد كثرت الكتب والرسائل كثرة واضحة ولا سيما عند المتقدمين من المشتغلين باللغة ، فمنهم من عني بلغة القرآن ومنهم من عني بلغة الحديث ، ومنهم من عني بعامة الغريب ، فمن ذلك كتاب (غريب الحديث) لابي عبيدة (٢١٣ هـ) و (قطرب : ٢٠٤ هـ) وابي عبيد (٢٢٤

---

(١) بغية الوعاة : ١٧٦
(٢) نزهة الالباء : ٦٢
(٣) كشف الظنون ١٠٧/٢ ومعجم الادباء ١٠٨/١
(٤) معجم الادباء ٣١٢/٧
(٥) نفسه : ٥/٧

هـ) ، وكتاب (غريب القرآن) لابن سلام الحممي (٢٣١ هـ) وابي عبيدة ومؤرج بن عمر والسدوسي (١٩٥ هـ) و (الغريب المصنف) لابي عبيد وغيرها .

والذي يدل على ان العلماء في اللغة قد توجهوا الى التنظيم والدقة في اعمالهم اللغوية ، انهم خصوا بعض رحلاتهم اللغوية الى البادية قبيلة معينة ، يكتبون اشعارها ، او يدونون عنها اخبارها وايامها ، او يقيدون لغتها ، او نوعا منها ، كما فعل ابو عمرو الشيباني في جمعه دواوين شعر ماينيف على ثمانين قبيلة [١] . وكما فعل ابن الاعرابي عند جمعه (نوادر الزبيريين) [٢] و (نوادر بني فقعس) [٣] . ثم اكثر العلماء من التأليف في فروع اللغة الأخرى وانواعها ، فكان ثمة كتب في الاضداد والحروف ، واللغات ، والترادف ، والمشترك ، وكتب اخرى في مظاهر الطبيعة والكون والحيوان والانسان والنبات ، وضعت على شكل رسائل صغيرة ، كالوحش والنبات والخيل وخلق الانسان والحيوان والمطر والانواء والسلاح والقداح والميسر واللبا والابل واسماء الاسد وخلق الفرس والشجر والامثال ، واسماء الجبال ، والامكنة واسماء السحاب والرياح واسماء مياه العرب والاشربة واسماء الخمر والاجناس وغيرها .

ولـــو لاحظنا مضامين هذه الرسائل اللغوية رأيناها رسائل تستقصي لغة جانب ضيق من جوانب الحياة العامة ، وهي بمجموعها تمثل عامة اللغة التي يتكلم بها العرب في باديتهم . من هذه الرسائل ، كتاب (الخيل) لعمرو بن كركرة (١٩٥ هـ) وكتاب (خلق الانسان) له ايضا وكتاب (اليأس والرجاء) لعلي بن عبيدة الريحاني [٤] (عصر المأمون) وكتاب (الوحوش) لابي زيد الانصاري (٢١٠ هـ) [٥] و (الوحوش) للهيثم بن عدى ، و (النبات) لابن الاعرابي ، و (اللغات) ليونس ، ولابي عبيدة و (اللجام) لابي عبيدة و(الفرس) له ، و (صفة الزرع) و (صفة الخيل) و (النبت والبقل) و (نسب الخيل) و (الانواء) و (الخيل) وغيرها لابن الاعرابي وكتاب (الحشرات) لابي خيرة الاعرابي الذي روى اللغة عنه ابو عمرو بن العلاء .

---

(١) نزهة الالباء : ٦٢ ومعجم الادباء : ٢٣٦/٢
(٢) معجم الادباء : ٩/٧
(٣) نفسه : ٩١/٦
(٤) نفسه : ٢٧٠/٥
(٥) نفسه : ٢٤٠/٤

ولسنا نريد ان نستقصي مؤلفات اللغويين ورسائلهم هنا ولكننا نريد ان نقول : ان هذا التطور من التأليف اللغوي كان حافلا بوضع الرسائل في انواع اللغة ، وموضوعاتها ، بحيث اصبحت هذه الرسائل مادة ميسورة بين ايدي اصحاب المعجمات يحشون بها مواد اللغة ، وتفسير المفردات ، وينقلون منها شواهدهم وامثلتهم واساليب استعمالهم للالفاظ ، اضافة الى كتب المعاني والبلاغة والنقد ، والتفسير والشرح ، والنحو والصرف .

ومن هنا كان وجود (المعجم العربي) مرحلة ناضجة من مراحل تطور التأليف في اللغة ، فلم يظهر الا بعد منتصف القرن الثاني الهجري ، فالعين للخليل (١٧٧ هـ) لم يعرفه احد في عصره بل اشتهر وذاع بعد وفاة الخليل على يد الليث بن المظفر تلميذه مما دعا الى الشك في نسبته الى الخليل ، والواضح ان الخليل قد بدأ تأليفه في اواخر ايامه وقبل وفاته بمديدة قصيرة حتى اذا توفي قبل انجازه ، اتمه بعده تلميذه الليث مستعينا بما بين يديه من رسائل اللغة ، والسماع من العلماء [١] .

و (الجيم) لابي عمرو الشيباني : (٢٠٧ هـ) ، الفه ابو عمرو اسحاق ابن مرار ، وضن به على طالبي العلم في حياته ، فلم يعرفه احد حتى وفاته ولم يؤلف معجم آخر غير هذين المعجمين في القرن الثاني الهجري ، ومن الواضح انهما ضما جلّ ما عرفه رواة اللغة ، وما دوّنوه في رسائلهم وكتبهم ، من نصوص اللغة المنقولة عن الاعراب ، ففي كتاب (العين) جملة من النصوص اللغوية عن ابي خيرة وابي الدقيش الاعرابيين وغيرهما . وفي كتاب (الجيم) نقول واضحة عن الاعراب المنسوبين الى قبائلهم ، كما يتضح ذلك من كلام ابي عمرو .

ويمكننا الان ان نقول : ان ظهور المعجم العربي في مضمار الدراسات اللغوية العربية ، كان يعني الاتجاه الى الحفظ الواعي للغة ، وحمايتها من الضياع والاختلاط ، كما كان يعني الاتجاه الى تهذيبها وتنقيتها مما داخلها من الغريب والدخيل ، والملحون ، والمحدث والمولد ، ومن هنا كانت المعجمات الاولى معنية بالاشارة الى ما كان عربيا محضا والى ما كان دخيلا او اعجميا او مولدا ، او ملحونا في كلام العامة والخاصة .

ثم هي بعد ذلك تمثل مرحلة من مراحل تطور اللغة ودلالاتها واصواتها حتى زمن وضع المعجم .

---

(١) مراتب النحويين : ٣١ ، والارشاد : ٢٢٧/٦

كتاب العين والخليل

اشرنا في ما سبق الى ان ثمة شكا حول نسبة كتاب العين للخليل بن احمد ، وسببه ان هذا الكتاب لم يرى احد في زمن الخليل ، بل حمله عنه تلميذه الليث بن المظفر ، ونسب اليه ، وحين سئل تلميذه النضر بن شميل (٢٠٣ هـ) عن هذا الكتاب انكره ، وادّعى انه لم يفارق الخليل حتى دفنه بيديه ، ولم يكن يعلم ان له كتابا بهذا الاسم [١] . على ان في الاخبار ما يرفض قول النضر هذا ، فقد نقلوا عنه انه وضع كتابا باسم (المدخل الى العين) .

ونقلت الاخبار ان الخليل استدعى تلميذه الليث ، وعرّفه بمشروعه في وضع هذا الكتاب ، فاملى عليه طريقته ، فلم يجد الليث طريقا الى فهمها ، وتعذّر عليه ذلك ، فترك استاذه الخليل وقصد الحج ، ثم رجع فوجد ان استاذه قد عمل جزءا من الكتاب ، وقد انجز خطته كاملة ، فاملى عليه ، وطلب اليه ان يستفسر من العلماء ما يجهله ، فلما قضى الخليل نحبه ، كان جزء كبير من الكتاب قد بقي على الليث ، فأتمه الليث .

وروى ابن المعتز في (طبقات الشعراء) عند ترجمته للخليل انه هو الذي وضع الكتاب بكامله ، واهداه لليث ، وكان الليث قد حفظ نصفه فلما شغل بالكتاب عن زوجته احرقته ، اغاظة له ، فلما اراد تأليفه من جديد كتب النصف الاول منه من حفظه ، واستعان في النصف الثاني بعلماء عصره فوقع لذلك التخليط في الاجزاء المتأخرة من الكتاب [٢] .

وذكر آخرون ان الخليل قد الف منه جزءا وصل فيه الى آخر حرف العين فمات ، واتمه غيره بعده [٣] .

ولسنا نريد ان نستقصي ما قيل في الكتاب ، مما اثار الشكوك وجعل

(١) طبقات النحويين : الزبيدي : ٥٣ فما بعد

(٢) طبقات الشعراء : ٢٠٢

(٣) انظر مقدمة تهذيب اللغة للأزهري ، وارشاد الاريب : ٢٢٣/٦ ومراتب النحويين: ٣١

الدارسين في حيرة من حقيقته ، والواقع ان كتاب العين من تأسيس الخليل ، ومنهجه ، لأمراء في ذلك ، وان كان بعضهم ينكر ان يكون للخليل يد فيه ، فان الخليل قد عمل جزءاً غير يسير منه ، ولكنه مات ، فاتمه بعده تلميذه الليث بعد ان عرف طريقته ، وها هو الليث يحدثنا عن كيفية عمل العين ، بعد ان استدعاه الخليل ، واوضح له ترتيب حروف آ ب ت ث على نظام المخارج ، لاستيعاب كلام العرب وحصر مواد اللغة ، فيسأله الليث : وكيف يكون ذلك ؟ فيوضح له الخليل طريقته في وضع مواد اللغة على (الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي) وكان الليث يسأل والخليل يجيب ، فلم يدرك الليث مراد الخليل فهو يقول : « فجعلت استفهمه ويصف لي ، ولا اقف على ما يصف فاختلفت اليه في هذا المعنى ، اياما ، ثم اتمثل ، وحجبت ، فما زلت مشفقا عليه ، وخشيت ان يموت في علته ، فيبطل ما كان يشرحه لي فرجعت من الحج وصرت اليه ، فاذا هو قد الف الحروف كلها على ما هي في الكتاب . وكان يملي علي ما يحفظ ، وما شك فيه يقول لي : سل عنه ، فاذا صحّ فاثبته ، الى ان عملت الكتاب [١] .

فمن هذا الخبر نستنتج ان الكتاب من تأسيس الخليل لا غيره ، وانه مارس تأليف الكتاب بيده ، غير ان مرضه حال دون استمراره ، فاستعان بالليث يملي عليه ، والليث يكتب حتى نجز الكتاب ، بيد الليث .

ومهما يكن من امر فان الدارسين المحدثين قد اثبتوا ان الخليل هو المؤلف الحقيقي لكتاب العين [٢] .

ولا بد لنا ونحن ننسب هذا الكتاب المعجمي الضخم لابي عبد الرحمن الخليل بن الفرهودي ، من ان نعرف بالمؤلف تعريفا موجزا .

ولد الخليل سنة مئة هجرية ، ومال منذ نشأته الاولى بالبصرة الى اخذ العلم من شيوخه ، فلازم ابا عمرو بن العلاء ، وروى عن ايوب وعاصم الاحول وغيرهما [٣] ، حتى كان الغاية في علوم اللغة العربية ، فاستخرج العروض وضبط اللغة ، وحصر اشعار العرب وكان عارفا بالايقاع ، وبه احدث علم العروض ، كما كان شاعرا ، ينظم البيتين والثلاثة ونحوها .

---

(١) معجم الادباء : ٢٢٧/٦

(٢) كالدكتور حسين نصار في المعجم العربي ، والدكتور عبدالله درويش في مقدمة الجزء الاول من العين ــ طبع العراق ، وفي دراسته للدكتوراه عنه .

(٣) معجم الادباء : ١٨١/٤ فما بعد .

ساعد الخليل على ان يصبح اماما في العربية واللغة ذكاء حاد ، وفطنة عالية وذوق وحس مرهفان ، وخلق ودين وادب جم ، حتى كان يشار اليه ، لسعة الصدر وحسن الاخلاق والدين ، فكان سفيان الثوري يقول من احب ان ينظر الى رجل خلق من الذهب والمسك ، فلينظر الى الخليل بن احمد (١) .

وكان النضر بن شميل تلميذه يقول : « كنا نمثل بين ابن عون والخليل بن احمد ، ايهما نقدم في الزهد والعبادة ، فلا ندري ايهما نقدم » (٢) . ويقول : « ما رأيت رجلا اعلم بالسنة بعد ابن عون من الخليل ... اكلت الدنيا بعلم الخليل ... وكتبه ، وهو في خصّ لا يشعر به . وكان يحج سنة ويغزو سنة »

لقد كان الخليل ابي النفس ، مترفعا نزيها ، الى جانب علمه الجم ، فالتف حوله جملة من طلبة العلم والمعرفة ، اصبحوا فيما بعد أئمة العربية ، كالاصمعي وسيبويه ، والنضر بن شميل ، وابي فيد مؤرج بن عمرو السدوسس وعلي بن نصر الجهضمي والليث بن المظفر ، والاخفش الاوسط ، وخالد الحذاء ، وعمرو بن كركرة ، وغيرهم .

ولقد ذكرت له كتب التراجم جملة من الكتب والرسائل في علوم اللغة العربية ، وغيرها ، من ذلك :

١ ــ كتاب الايقاع　　　٢ ــ كتاب الجمل
٣ ــ كتاب الشواهد　　　٤ ــ كتاب العروض
٥ ــ كتاب العين　　　٦ ــ كتاب فائت العين
٧ ــ النغم　　　٨ ــ النقط والشكل وغيرها

توفي الخليل بن احمد سنة (١٧٥ هـ) عن اربع وسبعين سنة وقيل غير ذلك (٣) .

---

(١) انظر : معجم الادباء : ٤/١٨١ ــ ١٨٢ ومراتب النحويين : ٢٧ ونزهة الالباء : ٣١ وطبقات الزبيدي : ٤٤ ــ ٤٥ والفلاكة : ٩٣

(٢) انظر طبقات الزبيدي : ٤٤ والنزهة : ٣١ والتنبيه على حدوث التصحيف ١٥٣ ، انباه الرواة : ١/٣٤٦ . مفتاح السعادة : ١/١٠٨

(٣) انظر معجم الادباء : ٤/١٨٣

منهج العين

يعدّ كتاب العين باكورة التأليف المعجمي عند العرب . وان كان ثمة شك في اسبقية هذا الكتاب ، لوجود كتاب آخر معاصر له وهو كتاب الجيم للشيباني .
وعلى اية حال ، فان الطريقة التي فتقها الخليل بن احمد في هذا المعجم مدرسة من اكبر المدارس المعجمية في مضمار التأليف اللغوي ، لما تميزت به هذه الطريقة من خصائص وسمات افتقرت اليها المدارس المعجمية الاخرى ، وهذه الخصائص والسمات هي :

١ ـــ الترتيب على المخارج :

لقد تناول الخليل ترتيب حروف المعجم على الاحياز الصوتية ناسبا كل صوت منها الى موضعه من الجهاز النطقي ، بعد ان كان الترتيب المعروف عند العرب ، وهو ترتيب النصر بن عاصم الليثي الذي نقله من ابجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ ، فجعله :

أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و ى .

فلما جاء الخليل ، اراد ان يبتدع ترتيبا علميا دقيقا يعطي لكل صوت من هذه الاصوات صفته ، ويحدد موضعه من المخرج ، فدرس الحروف ، وتذوقها بجهاز نطقه ، فوجد ان حروف الحلق ادخل في المخرج من سائرها ، ووجد ان الهمزة هي الاعمق مدخلا ، فاراد ان يبتديء بها ، ولكنه اخرها لانه وجد انها لا تستقر على صوت واحد ، اذ سرعان ما تتبدل الى حرف مدّ كما هي الحال في مثل : « شؤم وشوم ، وذئب وذيب ورأس وراس » ورأى ان « العين » هي الاحق بالتقدم لكونها انصع الحروف جرسا ، وادخلها في الحلق ثم تليها الحاء فالهاء وهكذا الى آخر الحروف . فكان ترتيبه على الشكل الآتي :

ـــ ع ح هـ خ غ : الاحرف الحلقية .
ـــ ق ك : وهما حرفان لهويان .

ـــ ج ش ض	: ثلاثة احرف شجرية .
ـــ ص س ز	: ثلاثة احرف اسلية .
ـــ ط د ت	: ثلاثة احرف نطعية .
ـــ ظ ذ ث	: ثلاثة احرف لثوية .
ـــ ر ل ن	: ثلاثة احرف ذولقية .
ـــ ف ب م	: ثلاثة احرف شفوية .
ـــ ا و ى	: ثلاثة احرف جوفية او هوائية .
ـــ الهمزة .	

فيلاحظ ان الهمزة قد انفردت لوحدها ، لما سبق ان اشرنا ، وبذلك عقد لها بابا خاصا ، يبين فيه تغيرها وصفاتها وانواعها .

كما يلاحظ ايضا ان مجموعات الاصوات ذات اسماء تحدد مواضعها من المخارج ، فالحلقية منسوبة الى الحلق وهو اول موضع في مواضع الجهاز النطقي تخرج منه الاصوات اللغوية . ثم اللهاة التي نسب اليها الحرفين اللهويين فشجرة الفم ومنها مخرج الاحرف الشجرية ، فأسلة اللسان ، وهو مستدق طرفه ومنه مخرج الاحرف الاسلية . واما نطع الغار الاعلى من الفم ففيه مخرج الاحرف النطعية ، ويليه مخرج الاحرف اللثوية من لثة الفم تحت الاسنان ، ثم احرف الذلاقة ، وهي الاحرف التي تنذلق على اللسان ، فالاحرف الشفوية ، وهي التي تشترك الشفة في اخراجها .

اما احرف الجوف ، او الاحرف الهوائية ، فيشترك في اخراجها كل الجوف من الرئتين حتى آخر الفم . وبذلك اكتسبت كل مجموعة اسما خاصا يميزها عن المجموعة الاخرى .

٢ ـــ تقسيم الابواب على الثنائي والثلاثي وما فوق الثلاثي :

ولقد فكر الخليل في طريقة يحصر بها مواد اللغة وجذور المفردات ، وهي طريقة رياضية ، تتممها عمل منهجمي آخر تميزت به هذه المدرسة ، وهو نظام التقليب الذي سنتحدث عنه بعد اعطاء فكرة عن هذا الجزء من المنهج .

فالمعروف ان العربية ثلاثية الاصول ، في الاغلب ، وقد يكون منها رباعي او خماسي ، كدحرج وسفرجل .

اما الاصل الثلاثي فهو نوعان : ثنائي بالشكل الثلاثي بالحقيقة وهو المضعّف : مثل : مدّ ، وصفّ ، وغمّ ، وهذا النوع هو الذي اراده الخليل بالثنائي .

ونوع ثان هو الثلاثي بالشكل والحقيقة ، مثل : ذهب ، وعى ، نوى ، سما .

فقسم الخليل ابواب كتابه على الثنائي ، واراد به المضعف ثم الثلاثي ثم الرباعي ثم الخماسي .

٣ ـ **نظام التقليب** : وهو منهج رياضي دقيق استطاع به الخليل ان ينجز مهمة حصر مواقع الحروف من المادة اللغوية ، وضمّن به ان يمر على الحرف في ترتيبه المخرجي دون العودة اليه ثانية ، اعني ان مادة (خفّ) مثلا من الثنائي ، قد تكونت من حرف (الخاء) من احرف الحلق ، مع حرف الفاء من احرف الشفة ، حسب ترتيبه ، فاذا لم نقلب مادة (خف) ونصنع منها (فخ) فاننا لن نمر على المادة الثانية (فخّ) ، ولذلك كان نظام التقليب جزءا اساسيا كبيرا من منهج هذه المدرسة .

وبتقليب الثنائي تتكون عندنا (مادتان) ، مثل (عدّ) و(دعّ) و(عق وقعّ) ... وهكذا . وتتم هذه الطريقة بان يبدأ الكتاب بحرف (العين) وهو اول الحروف . ويثنيه بالحرف الذي يليه وهو (الحاء) (عح) و (حع) ثم العين والهاء (عه وهع) ثم (العين) و (الخاء) : (عخ وخع) ثم (العين والغين) (عغ وغع) و(عق وقع) و(عك وكع) ... حتى نهاية الحروف ويكون بذلك قد مرّ بحرف العين على جميع الحروف واقعا في صدر المادة مرة وفي عجزها مرة اخرى .

اما الثلاثي فتتكون منه ست مواد (اي حاصل ضرب مادتين في ثلاث) مثل : عرق ، عقر ، قعر ، قرع ، رعق ، رقع) . ومثل (عجل ، علج ، جلع ، جعل ، لجع ، لعج) ... وهكذا .

وتتم طريقة الثلاثي بأخذ الحرف الاول وهو العين ثم ما يليه وهو الحاء ثم الهاء : (ع ح هـ) وتقليباتها . ثم (ع ح خ) وتقليباتها ، (ع خ غ) وتقليباتها (ع ح ق) وتقليباتها ، ويلاحظ انه يبدل الحرف الثالث منها دائما حتى نهاية الحروف الثمانية والعشرين ، فاذا انتهى منها . اخذ العين ايضا مع الحرف الثالث منها دائما حتى نهاية الحروف الثمانية والعشرين ، فاذا انتهى منها . اخذ العين ايضا مع الحرف الثالث وهو الهاء : (ع هـ) وما يثلثهما :

(ع هـ خ) (ع هـ غ) (ع هـ ق) (ع هـ ك) (ع هـ ج) وتقليباتها جميعا حتى نهاية باب الثلاثي من العين ، فيتركه ويأخذ الحرف الذي بعده ... وهكذا .

اما الرباعي ، فيستخدم في تكوين مادته الطريقة التي استخدمها في الثنائي والثلاثي ، ولكن الذي نلاحظه ان مواده تكون اربعا وعشرين اي : من (حاصل ضرب ٦ مواد من الثلاثي في اربع) . وهاك مثالا لذلك :

ع ق ر ب	ـــ ع ق ب ق	ـــ ع ب ق ر
ع ب ر ق	ـــ ع ر ق ب	ـــ ع ر ب ق
ب ع ق ر	ـــ ب ع ر ق	ـــ ب ق ر ع
ب ر ق ع	ـــ ب ر ق ع	ـــ ر ق ع ب
ر ق ب ع	ـــ ر ب ق ع	ـــ ر ب ع ق
ر ع ب ق	ـــ ر ع ق ب	ـــ ق ر ع ب
ق ر ب ع	ـــ ق ع ب ر	ـــ ق ع ر ب
ق ب ع ر	ـــ ق ب ر ع .	

فأنت تجد ان كلا من (العين والراء والقاف والباء) قد تصدرت ست مواد من مجموع اربع وعشرين مادة .

اما الخماسي فيتكون من حاصل ضرب اربع وعشرين مادة في خمس فيتكون المجموع مئة وعشرين مادة .

وبذلك يكون الخليل قد حصر بشكل رياضي دقيق كل المواد التي تتألف من حروف العربية وتقليباتها ، سواء أكانت هذه المواد مهملة ام مستعملة في كلام العرب وظهر عنده انها بلغت حوالي اثني عشر مليونا ونصف المليون .

وكان على الخليل ان يقف على ما كان مستعملا من المواد في سائر كلام العرب ، وما لم يستعمل ، وذلك لا يتأتى الا بسعة الاطلاع وكثرة السماع من العرب ومشافهتهم ، والنقل عن العلماء . ومن هنا وضع اساسا منهجيا ملتزما به في صدر كل جذر وهو اشارته الى :

٤ ـــ **المهمل والمستعمل من اللغة** : ويلاحظ ذلك واضحا في صدر كل باب ، فتقليب مادة (عه) [1] ، مثلا ، أهمل الخليل هذا الباب لعدم سماع

---

(١) العين : أول حرف العين .

استعماله من العرب : كما اهمل (العين مع الغين) ولكن تقليب (عق) و (قع) مستعملان فاخذ بتفسيرهما ، واورد عليهما شواهد ، وامثلة من كلام العرب .

وفعل مثل ذلك في الثلاثي وسائر الابواب (فالعين مع الحاء) وما يثلثهما مهمل كله ، وكذلك الابواب (ع هـ خ و ع هـ غ) جميعها . وهكذا الحال في جميع الابواب حتى آخر الكتاب .

ان منهج كتاب العين صعب ، يحتاج الى دقة وتأمل ، ولكن صعوبته تتذلل بيسر وسهولة اذا ما حفظنا ترتيب الحروف على المخارج ، وفيما يأتي محاولة لاستخراج بضع كلمات من تضاعيف العين .

كيف نستخرج الالفاظ المفسرة من مدرسة العين

اذا كان بين ايدينا الالفاظ (صنع) (وهن) (اكرم) (بعثر) (سفرجل) و (استطاع) (انتقل) ، فكيف نعثر عليها في المعجمات التي سارت في موكب هذه المدرسة المعجمية العريقة ؟

نأخذ مادة (صنع) فهي جذر ثلاثي لا زيادة فيه ومن هنا ينبغي ان نفتش فيها عن الحرف الاول في ترتيب الخليل المخرجي ، فنلاحظ انه (العين) وهو آخر مادة (صنع) ثم نفتش عن الحرف الذي يثني العين في ترتيب الخليل المخرجي كذلك فهو (الصاد) ثم تأتي النون ولذا فاننا نجد هذه المادة (صنع) في تفسير (عصن) وتقليباتها الستة وهي : (ع ص ن ــ ع ن ص ــ ن ع ص ــ ن ص ع ــ ص ن ع ــ ص ع ن) فالمادة الخامسة ضمن التقليب هي المقصودة بالبحث .

أما (وهن) فالهاء اولها ثم النون فالواو أي في (هنو) وتقليباتها الستة .

وكرم : في (ك ر م) أي هي المادة الاولى في الباب الذي نريد ان نستخرج منه تفسير (كرم) .

اما (بعثر) الرباعية ، فهي حتما في باب الرباعي من العين وهو اول الحروف ثم الثاء فالراء فهي اذن في (عثرب) وتقاليبها الاربعة والعشرين .

ومادة (سفرجل) في : (ج س ر ل ف) وذلك تبعا للترتيب المخرجي الذي جرى عليه المؤلف .

اما الكلمتان (استطاع وانتقل) فانهما ليستا جذرين لانهما زيدتا ، فجذر استطاع هو (طوع) . والعين فيه هو الحرف الاول ثم الطاء فالواو : (عطو) وتقليباتها .

و (انتقل) جذره : (نقل) فسنجده في (قلن) لان القاف قبل اللام والنون في الترتيب المخرجي .

الكتب المعجمية على طريقة العين :

لقد تبع الخليل في منهجه كثيرون ، كان منهم الناقد والمستدرك ، ومنهم المكمل والمتمم ، ومنهم المتبع المقلد .

فمن المستدركات ، كتاب : (الاستدراك على العين) لابي بكر الزبيدي الاشبيلي (٣٧٩ هـ) [١] الذي الف كتابا آخر في العين سماه (الانتصار للخليل) [٢] .

ومن الكتب المكملة للعين كتاب (التكملة) للبشتي الخارزنجي (٣٤٨ هـ) [٣] ، الذي نقده الازهري في مقدمة كتابه التهذيب ، ووصمه بالتصحيف والجهل ، والغلط الكثير ، وقال فيه بعضهم :

في الخارزنجي بلـــه ... وفيـــه عيّ وولـــه
ويدعـي من جهلـه ... وضع كتاب التكمله
وهـو كتـاب العين ... الا انه قد كملـه

ومن الكتب التي نهجت نهج الخليل ، وتتبعته في دقائق منهجه كتاب (البارع) للقالي (٣٥٦ هـ) وكتاب (المحكم) لابن سيده (٤٥٨ هـ) وهو مطبوع ، وكتاب (الحصائل) لأبي الازهر البخاري (٣٢٥ هـ) وكتاب (تهذيب اللغة) لابي منصور الازهري (٣٧٠ هـ) وقد طبع في خمسة عشر جزءا ، ثم الحق به جزء سادس عشر مستدرك على الاجزاء المتقدمة [٤] وهناك معجمات اخرى نهجت نهج العين ، ككتاب (المحيط) للصاحب بن عبّاد (٣٨٥ هـ) وغيره .

تطوير مدرسة العين

كان لا بد لمنهج العين الصعب ان يلقي من ينحرف به قليلا الى طريق اكثر يسرا ، واسهل مأخذا ، فكان عمل ابي بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدى (٢٢٣ هـ ــ ٣٢١ هـ) في كتابه : (الجمهرة) اول خطوة وآخرها لتيسير

---

(١) الاستدراك على العين للزبيدي ، طبع سنة ١٨٠٠ م .
(٢) انباه الرواة : ٣/١٠٩
(٣) تهذيب اللغة للأزهري : ١/٣٤
(٤) حقّقه الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي وطبع بالقاهرة عام ١٩٧٥ في الهيأة العامة للكتاب .

منهج مدرسة العين العويص ، فقد اهمل ابن دريد ترتيب الخليل على المخارج واخذ بالترتيب الالفبائي الشائع وهو :

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ... الخ .

ولكنه لم يجد بدا من الالتزام بسائر منهج الخليل ، فاتخذ نظام (الثنائي والثلاثي والرباعي وملخصه ، والخماسي وما يلحق به ، ثم باب النوادر) منهجا له .

ثم اتخذ نظام (التقليب) ، الذي نهجه الخليل ، فاخذ الحرف الاول وهو الهمزة وما يليها وهو الباء ، ثم التاء ، وتقليب هذه الاحرف : أبت ، أتب ، تأب ، تبأ ، بتأ ، بأت . والتزم كذلك بترك المهمل والاشارة الى المستعمل وتفسيره ، وهي عين طريقة الخليل ، ومن هنا كانت ملاحظة بعض الناقدين لعمل ابن دريد انه لم يفعل شيئا بالعين سوى تغيير جزء من نهجه ، فقال :

ابن دريد بقره وفيه عيّ وشره
ويدعي من حمقه وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين الا انه قد غيره [1]

وهي ملاحظة قريبة من الصواب ، لولا ان ابن دريد قد تصرف كثيرا في تفسير بعض المواد ، والاكثار من لغة اليمن ، ونوادرها وغريبها ، وظهور النقد في منهجه لمن يأخذ عنه ، ولذلك كانت شخصيته بارزة واضحة .

وتبعا لهذا الاختلاف في منهج الجمهرة عن العين ، تغيرت مواضع تفسير المواد في كل من الكتابين ، ففي حين نجد مادة (سجع) في باب (ع ج س) من العين نجدها في باب (جسع) من الجمهرة .

---

(١) معجم الادباء : ٦/٤٩٠

كتاب الجيم ومدرسة الالفباء

كان في عصر الخليل ابو عمرو اسحاق بن مرار الشيباني (٩٤ هـ ـــ ٢٠٧ هـ) قد وضع معجمه كتاب (الجيم) ، وقد وصل الينا اليوم ، وطبع منه لحد الآن الجزءان الاول والثاني . [١] .

اما مؤلفه فهو ابو عمرو الشيباني الكوفي اللغوي ، صاحب التصانيف في اللغة ، كالحروف والنوادر الكبير والنوادر الصغير ، واللغات ودواوين شعر القبائل [٢] وغيرها .

لقد سمّي ابو عمرو كتابه (الجيم) من دلالة لفظ (الجيم) على (الديباج) وهو ثاني معنيين يوردهما الفيروزآبادي في القاموس المحيط [٣] ، اولهما : (الابل المغتلمة) ، والثاني : (الديباج) قال الفيروز « سمعته من بعض العلماء نقلا عن ابي عمرو مؤلف كتاب الجيم » .

ولقد ذهب بعضهم الى ان سبب تسمية الكتاب بهذا الاسم من قبيل انه مبدوء بحرف الجيم ، وهو وهم ساق اليه ما ذكره ابو منصور الازهرى حول كتاب باسم الجيم نسبه الى ابي عمرو الهروي ، شمر بن حمدويه (٢٥٥ هـ) ، ألفه عندما القى عصاه بهراة ، قال : « الف كتابا كبيرا في اللغات ، اسسه على الحروف المعجمة ، وابتدأ بحرف الجيم ، فيما اخبرني ابو بكر الايادي وغيره ممن لقيه ، فاشبعه وجوده [٤] ثم عقّب على ذلك بانه : « لما

---

(١) سنة : ١٩٧٩ م

(٢) الفهرست لابن النديم : ٦٨

(٣) القاموس : ٩٤/٤ (جيم) والتاج : (جيم) .

(٤) تهذيب اللغة : ٢٥/١

كمل الكتاب ضن به في حياته ، ولم ينسخه طلابه ، فلم يبارك له فيما فعله حتى مضى لسبيله ، فاختزل بعض اقاربه ذلك الكتاب من تركته ، واتصل بيعقوب بن الليث السجزى ، فقلده بعض اعماله ، واستصحبه ، يعني الكتاب ، الى فارس ، ونواحيها ، وكان لا يفارقه ذلك الكتاب في سفر ولا حضر ، ولما اناخ يعقوب بن الليث بسيب بني ماوان من ارض السواد ، وحط بها سواده ، وركب في جماعة المقاتلة من عسكره مقدرا لقاء الموفق واصحاب السلطان ، جرى الماء من النهروان على معسكره ، فغرق ذلك الكتاب في جملة ما غرق من سواد العسكر » (١) .

فحديث الازهرى كله في كتاب الجيم للهروى ، ولا علاقة له بكتاب الجيم للشيباني ، وقد رأى الأزهري من هذا الكتاب تفاريق اجزاء بخط محمد بن قسورة ، وتصفحها ، فوجدها على غاية الكمال ، واستغفر لابي عمرو ودعا له بان يتغمده الله برحمته ، وان يتجاوز عنه زلته في ضنه في العلم لان « الضن بالعلم غير محمود ولا مبارك فيه (٢) .

اما ياقوت فقد اعتمد كلام الازهري وأخذه ، ونقل كلامه كله في الارشاد (٣) .

واما القفطي ، فوصم الازهري بافتعال الخبر كله ، وان خطأه في نسبة الكتاب الى الهروي هي التي فرضت على الازهري ان يفتعل غرق الكتاب في النهروان ، وانما هناك كتاب واحد للشيباني (٤) .

والواقع ان هناك ثلاثة كتب باسم الجيم اولها هو هذا الذي ينسبه الازهري للهروي ، ولعله كان مبدوءا بحرف الجيم كما نقل الازهري عن ابي بكر الايادي وثانيها شيخه .

وثانيها : كتاب الجيم لابي عمرو الشيباني وهو مبدوء بالهمزة لا بالجيم يقول تاج الدين احمد بن مكتوم في تذكرته : «سئل بعضهم ، لم سمي كتاب

---

(١) تهذيب اللغة : ٢٥/١
(٢) نفسه : ٢٥/١
(٣) ارشاد الاريب : ٢٦٣/٤
(٤) انباه الرواة (خط) لوحة : ٤٥٤ / جـ ٢ / ق ٤

الجيم تصنيف ابي عمرو اسحاق بن مرار بهذا الاسم ؟ فقال : لان اوله حرف الجيم ، كما سمي كتاب العين ، لأن اوله حرف العين .

قال : فاستحسنا ذلك ، ثم وقفنا على نسخة من كتاب الجيم ، فلم نجده مبدوءا بالجيم [١] .

وهذا هو الواقع ، فكتاب الجيم لابي عمرو الشيباني مرتب على حروف المعجم أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و ى ا .

فهو مبدوء بالهمزة ، وهي اول الكتاب . والتزم فيه المؤلف الشيباني بالحرف الاول فقط دون مراعاة للحرف الثاني والثالث من المادة اللغوية وبذلك يكون ابو عمرو الشيباني اول واضع لمعجم مرتب على (الالفباء) معتمدا على (صدر المادة) اللغوية المفسرة .

والثالث : هو الجيم للنضر بن شميل ذكره الأزهري في تهذيبه .

كيفية استخدام الجيم للشيباني :

من المعلوم ان الشيباني اول من استخدم الترتيب الالفبائي منهجا في تنظيم مفرداته المفسرة في كتابه ، وبذلك عدّ هذا الكتاب اول المدرسة الالفبائية المعتمدة على صدر المادة اللغوية .

وقد تبعه فيما بعد جملة من علماء المعجمات . ولكنهم استطاعوا ان يطوّروا طريقته ، وان يصلوا بها الى مراحلها الناضجة التامة عندما فرضوا على انفسهم التزامات دقيقة سنأتي عليها عند دراسة سائر المدارس المعجمية .

اما كتاب الجيم ، فأهم خصائص منهجه هي :

١ ـ انه التزم بالحرف الاول من المادة اللغوية دون النظر الى عين الكلمة او لامها ، فجعل الهمزة فاء الكلمة ووقف عندها ، ولذلك يقع في ترتيبه ان يكون ما بعد الهمزة (واو) او (جيم) او (لام) كما تلاحظ في (باب الألف) ، فاللفظة الاولى هي : (أوف) ثم (ألب) ثم (المأفول) [٢] ... وهكذا .

٢ ـ التزم الشيباني بالنظر الى جذر المادة اللغوية ، فعلى الرغم من انه ينقل

(١) المزهر : السيوطي : ٤٦/١
(٢) الجيم : ٥٣/١

صيغ الالفاظ كما يسمعها من العرب كأسماء الفاعلين والمفعولين ، وافعل التفضيل ، وصيغ الافعال الا انه يدرجها في مواضعها الصحيحة من الترتيب .
(فالمأفول) صيغة اسم المفعول ، جذرها (أفل) ولذلك نجد انها في (الهمزة) و (الانذلاع) [1] مصدر (انذلع) وجذرها (ذلع) ولذلك وردت عنده في (الذال) ... و (المبناة وابهل) في (الباء) و (تيح) في (التاء) و (المجدح) في الجيم ، و (التخليب) في الخاء ... وهكذا .

٣ ـــ ان معجم الجيم ، كثير الغريب ، ينسب كل مسموع في اللغة الى قبيلته ، او الى الاعرابي الذي سمعه منه وهي ميزة قلما نجد مثيلها عند المعجميين الاخرين ولقد استكثر الشيباني من الاستشهاد بالشعر والرجز .

٤ ـــ حشر في الثلاثي رباعيا او اكثر ، اذ ليس المهم عنده ان يفصل بين الابنية والصيغ ، بل المهم عنده سردها جميعا نظرا الى صدرها في موضع واحد .

التقفية للبندنيجي

يدخل كتاب التقفية لليمان بن ابي اليمان ابي بشر البندنيجي (٢٠٠ هـ ـــ ٢٨٤ هـ) في (مدرسة الالفباء) ، ولكنه نهج نهجا جديدا يختلف عن نهج مؤسسها الاول ابي عمرو الشيباني سنقف عليه بعد ان نوجز في حياة هذا الرجل .

ابو بشر البندنيجي أعجمي من الدهاقين ، ولد سنة ٢٠٠ هـ اكمه ونشأ في بندنيج ، ومال منذ صغره الى حفظ الاشعار والادب ، فلازم علي بن المغيرة ابا الحسن الاثرم (٢٣٢ هـ) المعروف بصاحب ابي عبيدة معمر بن المثنى ، وروى عنه كتب ابي عبيدة وكتب الاصمعي ، كما حفظ كتب الاثرم نفسه ، وحدث عن نفسه فقال : « حفظت في مجلس واحد مئة وخمسين بيتا من الشعر بغريبه » [2] وكان كل ذلك في بلد بندنيج ، ثم تركها الى بغداد ليلتقي بمحمد بن زياد الاعرابي (٢٣١ هـ) وابي نصر احمد بن حاتم الباهلي ، صاحب الاصمعي وابن اخته (٢٣١ هـ) وحفظ (كتاب الاجناس الاكبر) للاصمعي .

(١) نفسه : ٢٧٨/١
(٢) معجم الادباء : ٣٠٤/٧

وأخذ عن ابي يوسف يعقوب بن السكيت (٢٤٤ هـ) والزيادي (٢٤٨ هـ) و (الرياشي ٢٥٧ هـ) بالبصرة وغيرهم حتى استوى عالما باللغة والشعر والعروض ، فألف فيها جميعا ، فكان له (معاني الشعر) و (العروض) و (التقفية) الذي نريد ان نتحدث عن منهجه .

وكان اليمان شاعرا ، ومن شعره :

انا اليمان بن ابي اليمان اسعد من ابصرت في العميان
انا تلقني تلق عظيم الشان تجدني ابلغ من سحبان
في العلم والحكمة والبيان

توفي ابو بشر سنة اربع وثمانين ومئتين (٢٨٤ هـ) [١] .

اما كتابه (التقفية) فهو طريقة خاصة جديدة يضيفها الى مدرسة الالفباء المعجمية . ذلك انه يهمل الاعتماد على (صدر المادة اللغوية) التي نهجها الشيباني ويعتمد اساسا على قافية المفردة التي يعطي تفسيرها .

يقول مؤلفه في مقدمته : « ونظرنا في نهاية الكلام فجمعنا الى كل كلمة ما يشاكلها مانهايتها كنهاية الاول قبلها من حروف الثمانية والعشرين ، ثم جعلنا ذلك ابوابا على عدد الحروف ، فاذا جاءت الكلمة مما يحتاج الى معرفتها من الكتاب نظرت الى آخرها ما هو من هذه الحروف ، فطلبته في ذلك الباب الذي هي منه ... واول ما ابتدىء في كتابنا هذا الالف ، لانها اول الحروف ، وعلى ذلك جرى امر الناس ، ثم نؤلفه على تناسقه » [٢] .

ويعني المؤلف في مقدمته هذه امورا هي :

آ ــ انه التزم بحرف القافية لكل لفظ يفسره ، ففي باب الالف الممدودة ، مثلا ، وهو اول الابواب ، يورد البندنيجي الالفاظ : (الاباء والاباء والخباء والسباء والهباء والاهباء والحرباء والعلباء والحصباء والقصباء والفتاء والعباء والقباء والكباء والشتاء والحنظباء والغثناء والنافقاء والرهطاء والداماء والقاصعاء والغابياء والرجاء والنجاء واللفاء والرمضاء والعداء والهجاء واللحاء ... الخ » .

فهي جميعا تنتهي بالهمزة ، وقبل الهمزة الف ، وهي التزام واضح ، ولكننا اذا تجاوزنا الالف قصدا الى اول الكلمة اختل النظام ، واختلفت الاحرف قبل

---

(١) انظر الفهرست : ٠٨٢ وانباه الرواة : ٧٣/٤ وتلخيص ابن مكتوم: ٢٨٢ .ومعجم البلدان: ١٧/٢ ونكت الهميان ٣١٣ . وبغية السيوطي : ٢٨٣/٢ .
(٢) التقفية : ٣٦ ــ ٣٧ .

الالف ، فهي مرة باء ، ومرة تاء ومرة لام ومرة حاء ... وهكذا . (١)

ب ــ اشار في مقدمته الى انه التزم وزن الكلمة فقال « انما الفناه على وزن الافاعيل ، فلينظر الناظر المرتاد وزن الكلمة في أي الابواب هو فانه يدرك الذي يطلب » (٢) . ويعني ذلك ان المؤلف نظر الى (التفعيلة العروضية) لا الى (الوزن الصرفي) للكلمة ، فهو ملتزم بما يصح ان يأتي قافية للقصيدة الواحدة ذات الروى الواحد ، يتضح ذلك فيما نسوقه لك من المفردات في قافية من قوافي العين :

« الربيع والسريع ، والرفيع ، والوضيع ، والمطيع ، والسميع ، والمنيع ، والمذيع ، والمشيع ، والنجيع ، والنقوع ، والبضوع ، والتزميع ، والنهوع ، والنسوع ، والخضوع ، والقريع ... الخ » (٣) . فان من هذه المفردات ما جاء على زنة (فعيل) مثل : سميع وسريع ووضيع ... الخ ومنها ما جاء على زنة (فعول) مثل : نجوع وبضوع ونهوع ... الخ . ومنها ما جاء على زنة اسم الفاعل مثل : مطيع ومشيع ومذيع ... الخ . ومنها ما جاء على زنة اسم المفعول : كالمنيع ، ومنها ما جاء مصدرا على (تفعيل) مثل التزميع ، ولكن هذه الالفاظ على اختلاف صيغها وابنيتها تصلح جميعا ان تكون قافية لقصيدة عينية ، ومن هنا كان هذا المنهج للبندنيجي قد جاء تيسيرا للشعراء في اختيار ما يحتاجونه من مفردات للقوافي .

جـ ــ على ان البندنيجي لم يراع في ترتيبه هذا فاء الكلمة ولا عينها ، ولكنه واضح الالتزام بترتيب الحروف الثمانية والعشرين حتى آخر الكتاب في انواع القوافي .

الفارابي وديوان الأدب

الفارابي هو أبو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم ، من فاراب ولد فيها فنسب اليها وأرتحل عنها الى اليمن ، واقام في زبيد مدة طويلة ، وفيها وضع كتابه المعروف بـ(ديوان الأدب) الذي وصفه هو بقوله «ميزان اللغة ومعيار الكلام»

---

(١) نفسه : ٣٨ فما بعد
(٢) نفسه : ٣٧
(٣) التقفية : ٥٤٤ .

ووصفه ياقوت الحموي بأنه « المشهور اسمه الذائع صيته » (١) .
ويبدو ان ابا ابراهيم الفارابي لم يغادر زبيد ، بل اقام فيها حتى ادركته المنية فلم يتهيأ لأحد ان يقرأ كتابه « ديوان الأدب » عليه .
وزعم الجوهري ، وهو ابن أخته ، أنه قرأه عليه وهو زعم ردّه بعض الباحثين (٢) . ونقل ياقوت ان القفطي كتب من اليمن رسالة يقول فيها « ان ابا ابراهيم اسحاق الفارابي ، مصنف كتاب ديوان الأدب ، كان ممن طوح به الزمان الى ارض اليمن ، وسكن زبيد ، وبها صنف كتابه ديوان الأدب ، ومات قبل ان يروى عنه ، وكان اهل زبيد قد عزموا على قراءته عليه فحالت المنية دون ذلك » (٣) .
غير ان ياقوت يسرد مجموعة من السماعات لهذا الكتاب ليؤكد في آخرها ابطال « ما كتب القفطي من كون هذا الكتاب صنف في زبيد ، وانه لم يسمع على مصنفه » (٤) وعلى اية حال ، فلئن تحقق ما زعمه الجوهري من انه درس الكتاب على خاله الفارابي كان ذلك مدعاة الى القول بان ما فعله الجوهري عند وضعه : كتابه الصحاح الذي سنتحدث عنه بعد قليل مستوحى من خاله في الديوان والا ، فان منهج الصحاح شيء من مبتكرات الجوهري .
ولقد ألّف الفارابي غير الديوان كتبا اخرى منها : كتاب بيان الأعراب وكتاب : شرح ادب الكاتب وغيرهما . وتوفى الفارابي سنة : ٣٥٠ هـ في اليمن .

منهجه في كتابه الديوان

قبل ان يعرف كتاب الصحاح للجوهري ، كان ، الفارابي قد وضع كتابه هذا في زبيد باليمن ، ونهج فيه طريقا خالف فيه أصحاب المعجمات المعروفة قبله ، ممن سار على طريقه الخليل أو الجيم او غيرهما .
ومع ان الفارابي لم يستقص مفردات اللغة وموادها ولكنه حصر جملة كبيرة من مواد اللغة تفرض علينا ان نعدّه واحدا من المعجمات المتقدمة ، بمنهج مختلف متميز ، واسلوب مغاير لما الفه غيره من اللغويين .

---

(١) ارشاد الاريب : ٢٢٧/٢
(٢) الصحاح ومدارس المعجمات : ١٠٢ فما بعد .
(٣) الارشاد : ٢٢٧/٢
(٤) نفسه : ٢٢٩/٢

فقد قسم كتابه على ستة كتب ، هي :

١ ــ كتاب السالم
٢ ــ كتاب المضاعف
٣ ــ كتاب المثال ، وهو ما كان في اوله واو او ياء
٤ ــ كتاب ذوات الثلاثة ، وهو ما كان في وسطه حرف من حروف العلة .
٥ ــ كتاب ذوات الأربعة ، وهو ما كان اخره حرف عله .
٦ ــ كتاب الهمزة

ثم قسم كل كتاب من هذه الكتب الى قسمين :

أ ــ الاسماء
ب ــ الافعال

وهو في جميع هذه الصفات المنهجية منفرد . لم يجار احدا ولا جاراه احد من مؤلفي اللغة غير أنه التزم بـ :

١ ــ الترتيب الالفبائي للمواد ، مبتدئا من الباء والتاء والثاء والجيم والحاء الى الياء .

٢ ــ جعل قافية المادة بابا ، وقسم الفصول على صدر المادة اللغوية ، وجعل الحرف الوسط اساسا لترتيب مواد الفصل . وبهذه الصفة المنهجية فقط التقى بابن اخته الجوهري في كتابه (الصحاح) ، ومن هنا كان ادعاء بعض الدارسين مثل كرنكو ، ان الجوهري سرق منهج خاله الفارابي [1] يقول احمد عبد الغفور عطار « ولقد اسرف الاستاذ كرنكو في دعواه ، ولا سند له فديوان الأدب للفارابي [2] ، وصحاح الجوهري موجودان ومنهما نسخ كثيرة صحيحة . والفارق بين المعجمين كبير ، وبعد كل هذا نجد عمل الجوهري اصح واكمل ، واعظم من عمل خاله الفارابي ونحن لا نشك ان الفارابي يعد واضع بعض اساس منهج الصحاح ، وفوق هذا اربى الجوهري على خاله ، وأتى بنظام دقيق بذه فيه وكان نظامه آية بيّنة » ...

فالفارق بينهما كبير في المنهج والترتيب والنظام وعدد المواد

(١) انظر : الصحاح ومدارس المعجمات ص ١٠٣ وانظر حاشية للصفحة .
(٢) طبع في القاهرة عام ١٩٧٨ .

لقد عني بكتاب « ديوان الادب » جملة من علماء اللغة العرب كابي سعيد محمد بن جعفر الغوري ، فزاد عليه في ابوابه وجعله في عشرة مجلدات [1] .
كما هذبه الحسن بن المظفر الشابوري بكتابه : « تهذيب ديوان الأدب » [2] .

الصحاح وعلاقته بالجيم والتقفية

كتاب الصحاح لاسماعيل بن حماد الجوهري (٣٩٨ هـ) من اشهر الكتب المعجمية المتداولة المفيدة لطلاب علم اللغة منذ ان وجد حتى عصرنا الحاضر .
مؤلفه الامام اللغوي الاديب ابو نصر اسماعيل بن حماد [2] « من اعاجيب الزمان ذكاء وفطنة ، واصله من بلاد الترك من فاراب » .
كان ذا خط يضرب المثل به في الجودة والاتقان ، حتى لا يكاد يفرق بينه وبين خط ابن مقلة .
لقد طوف ابو نصر الجوهري في الافاق ، وخالط الاعراب وشافههم ونقل اللغة عنهم . ولما دخل العراق التقى بابي علي الفارسي (٣٧٧ هـ) ودرس على يديه اللغة والنحو ، كما جالس ابا سعيد السيرافي ودرس النحو عليه ، ثم طوّف في بلدان الشرق حتى استقر في نيسابور ، يدرس ويؤلف ، ويكتب المصاحف بخطه الجميل ، حتى وافاه الاجل سنة ٣٩٨ هـ [3] ، فقد ذكر ياقوت انه رأى نسخة من الصحاح بخط المؤلف سنة ٣٩٦ هـ .
ألّف الجوهري كتبا في العروض واللغة والنحو منها كتاب : « عروض الورقة » وكتاب « المقدمة في النحو » وكتاب « الصحاح » وقد سمّاه : « تاج اللغة وصحاح العربية » [4] وهو الذي سنتحدث عن منهجه فيما يأتي من الصفحات .

منهج الصحاح :

لقد كان للطريقة التي انتهجها ابو عمرو الشيباني معتمدا على صدر المادة

---

(١) بغية الوعاة : ص ٢٣٠
(٢) انظر في ترجمته : يتيمة الدهر ٢٨٩/٤ ، معجم البلدان : ٧٩١/١ ومعجم الادباء ٢٦٦/٢ وانباه الرواة ١٩٥/١
(٣) وقيل سنة ٣٩٣ هـ وقيل في حدود ٤٠٠ هـ وقيل ٣٨٦ هـ .
(٤) معجم الأدباء : ٢٦٨/٢

وطريقة ابي بشر البندنيجي معتمدا على قافية المادة اللغوية تأثير واضح على ما فعله الجوهري في (صحاحه) . فقد اخذ من كل شيئا ، واعمل فكره في سائر منهجه حتى جاءت طريقته في معجمه بدعا جديدا بين المعجمات العربية منذ عصر الخليل حتى عصره . ومن الخطأ ان ننسب ما صنعه الجوهري في الصحاح الى خاله الفارابي (٣٥٠ هـ) الذي وضع كتابه (ديوان الادب) ، كما مرّ معنا في الصفحات السابقة ، فقد وضع هذا الاخير كتابه مقسما على : السالم ، والمضاعف ، والمثال ، وذوات الثلاثة ، وذوات الاربعة . ثم الهمزة . ووضع كل كتاب من هذه الاقسام مقسما على شطرين : شطر للاسماء ، وشطر للافعال . وافرد للهمزة بابا خاصا كما افرد لحروف العلة بابا خاصا . وقد اعتمد الفارابي على الحرف الاخير من المادة اللغوية مما ادى الى ان يذهب كرنكو Krenkow في عمل الجوهري الى انه سرق طريقة خاله الفارابي [١] ، وتسلط على مواد كتابه (الديوان) .

والواقع ان بين الكتابين بونا شاسعا في المنهج والطريقة واسلوب العرض وتفسير المواد كما سبقت الاشارة .

ولقد كان اعجاب الجوهري بعمله كبيرا بحيث اشاد به في (مقدمته) ووصفه بانه عمل لم يسبق اليه [٢] ونزل هذا الكتاب في نفوس الكثيرين من علماء العربية منزلا عظيما [٣] .

ويعود الفضل فيه الى انه يسرّ لطلبة اللغة ، التفتيش عن تفسير المواد ، ومعرفة معانيها ، دون كدّ او عناء على الشكل الآتي :

١ ــ جعل قافية المادة اللغوية اصلا في عقد الباب وسمي هذا الحرف (بابا) ، وقد استمَدَّ هذه الفكرة من الامام ابي بشر البندنيجي كما اشرنا سابقا .

٢ ــ جعل صدر المادة اللغوية (فصلا) ويعني بالفصل ان ينقسم (الباب) وهو الحرف الثابت الى ثمانية وعشرين فصلا متغيرا يبدأ بالهمزة وينتهي بالياء . وقد استمد هذه الفكرة ، أي صدر المادة من الامام الشيباني في كتابه (الجيم) .

---

(١) بواكير المعاجم العربية حتى عصر الجوهري : بحث لكرنكو في الملحق المئوي لمجلة الجمعية الآسيوية الملكية : سنة ١٩٢٤ م .

(٢) مقدمة الصحاح : الجزء الأول .

(٣) انظر : مثلا يتيمة الدهر : ٢٨٩/٤ . انباه الرواة : ١٩٥/١ ، المزهر : ٩٧/١ . والتاج ٣/١ ــ ٤ .

٣ ــ نظر الى الحرف الوسط ، وهو الحشو ، وجعله اساسا لترتيب المواد ، مبتدئا بالهمزة ومنتهيا بالياء . وذلك نحو : باب (الراء) فصل (النون) ...
نأر ، نبر ، نتر ، نثر ، نجر ، نحر ، نخر ، ندر ، نذر ، نزر ، نسر ، نشر ، نصر ، نضر ، نطر ، نظر ، نعر ، نغر ، نفر ، نقر ، نكر ، نمر ، نهر ، نور (نار) (نير) .

٤ ــ لم يعقد الجوهري لما فوق الثلاثي ابوابا ولا فصولا وانما كفل له منهجه المجيء على المواد جميعها ثلاثية كانت ام غير ثلاثية . فمادة (دحرج) مثلا تعثر عليها في باب (الجيم) (فصل الدال) . ومادة (سفرجل) تجدها في باب (اللام) فصل (السين) ... وهكذا .

ولقد نهج منهجه كثير من رواد المعجم العربي كالحسن بن محمد الصغاني (٦٥٠ هـ) في معجماته : (العباب) و(التكملة) و (مجمع البحرين) كما تبعه في منهجه الامام محمد بن المكرم بن منظور الافريقي الشافعي (٦٣٠ هـ ــ ٧١١ هـ) في كتابه (لسان العرب) الذي جمع فيه خمسة مصادر هي :

١ ــ تهذيب اللغة للأزهري (٣٧٠ هـ)
٢ ــ الصحاح للجوهري (٣٧٨ هـ)
٣ ــ المحكم لابن سيدة (٤٥٨ هـ)
٤ ــ حواشي الصحاح لابن برى (٥٨١ هـ) .
٥ ــ النهاية في غريب الحديث لابن الاثير (٦٠٦ هـ)

فجاء كتابا جيد الضبط حسن التأليف ، كثير الفوائد .

كما سار على طريقته الامام مجد الدين الفيروزآبادي ، محمد بن يعقوب (٨١٧ هـ) صاحب (القاموس المحيط) ، فقد وقف فيه على الكثير من الاوهام التي وقع فيها الجوهري ، واستدرك عليه وضبط كثيرا من المفردات .

ثم كان الامام محمد بن مرتضى الزبيدي (١٢٠٥ هـ) الذي شرح (القاموس) بكتابه الكبير الموعب : (تاج العروس) ووصل فيه الى ما ينيف على مئة وعشرين ألف مادة ، ووقف فيه على اوهام الجوهري ، والفيروز ، واستدرك جملة كبيرة من المفردات والصيغ والابنية ، كما ذكر ذلك في مقدمة التاج ، واشار الى مصادره ومراجعه التي استقى منها في مدّ معجمه [1] .

---

(١) للاستفادة ارجع الى : الصحاح ومدارس المعجمات لعطار من ص ١٨٥ فما بعد .

ولقد اختصرت الصحاح معجمات كثيرة ، واحسنها اختيارا وايجازا كتاب (مختار الصحاح) لزين الدين محمد بن شمس الدين محمد بن ابي بكر عبد القادر الرازي : (ق ٨) يتميز هذا الكتاب بالتصرف ، وحذف كثير من الشواهد التي اوردها الجوهري . وقد طبع لاول مرة في بولاق سنة ١٢٨٢ هـ ثم طبع في مصر طبعة غيرت نظامه الاصلي [١] ، وجعلته على طريقة الامام الزمخشري التي سندرسها .

معجم مقاييس اللغة لابن فارس

من المعجمات التي تندرج تحت ظل مدرسة الالفباء ، ولكن بطريقة جديدة مغايرة لغيره من المعجمات ، « معجم مقاييس اللغة » للامام اللغوي ابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا الرازي الهمداني القزويني .

اما نسبته الى الرى ، فقد جاءته من انه حمل اليها باجرة « ليقرأ عليه مجد الدولة ابو طالب بن فخر الدولة علي بن ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي صاحب الرى فاقام بها » ونسب اليها [٢] .

واما نسبته الى قزوين فلأنه منها ، كما ذكر الحافظ السلفي في شرح مقدمة معالم السنن للخطابي [٣] .

ونسب الى همدان لنزوله بها ، والاقامة فيها ، وفيها يقول :

سقى همذان الغيث لست بقائل
سوى ذا وفي الأحشاء نار تضرم
ومالي لا أصغي الدعاء لبلدة
افدت بها نسيان ما كنت اعلم
نسيت الذي احسنته غير انني
مدين وما في جوف بيتي درهم[٤]

ومن همذان هذه بعث ابو الحسين بكتاب له سماه (الحجر) الى الصاحب بن عباد (٣٨٥ هـ) فارجعه الصاحب قائلا : « ردّوا الحجر الى موضعه » ثم

---

(١) سنة : ١٣٢٣ هـ ــ ١٣٢٥ هـ
(٢) معجم الأدباء : ٧/٢
(٣) نفسه : ٦/٢
(٤) يتيمة الدهر : ٢١٩/٣

الف كتابا اخر وهو « فقه اللغة » وأهداه الى خزانة الصاحب فغلب عليه اسم « الصاحبي » .

لقد أخذ ابن فارس العلم من مشايخ عصره بعد ابيه [١] ، فلازم ابا بكر احمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب ، وابا الحسن علي بن ابراهيم القطان ، وابا عبد الله احمد بن طاهر المنجم ، وعلي بن عبد العزيز المكي ، وابا عبيد ، وابا القاسم سليمان بن احمد الطبراني [٢] . وابا احمد بن ابي التيار وغيرهم .

وحين استوى ابن فارس عالما بالرواية واللغة والادب اتجه الى التأليف ، فكان صاحب منهج متميز ، وشخصية واضحة فيما الف من كتب ورسائل ، وله من المؤلفات :

ـــ المجمل ، وهو معجم لغوي طبع منه الجزء الاول ، سار فيه على منهج المقاييس .
ـــ الفصيح ، وهو كتاب لغة .
ـــ متخير الالفاظ ، طبعه هلال ناجي في بغداد .
ـــ فقه اللغة ، وهو المعروف بالصاحبي .
ـــ غريب اعراب القرآن .
ـــ تفسير اسماء النبي ـــ ع ـــ
ـــ سيرة النبي ـــ ص ـــ وهو صغير الحجم ، موجز .
ـــ جامع التأويل في تفسير القرآن في اربعة اجزاء .
ـــ خلق الانسان .
ـــ معجم مقاييس اللغة ، وهو المعجم الذي سندرس طريقته بعد قليل . وله غير ذلك من الكتب ، بلغت العشرات في مختلف الفنون والمعارف [٣] .

لقد توفي ابن فارس سنة : ٣٩٢ هـ او بعدها ، وقد ذكر انه توفي قبلها ، ورفض ياقوت ذلك بحجة انه رأى على كتاب الفصيح له خط كفه ، وقد كتبه سنة ٣٩١ هـ .

---

(١) طبقات المفسرين : للسيوطي : ٤
(٢) انظر معجم الادباء : ٧٠٦/٢
(٣) انظر الفهرست لابن النديم : ٨٠

منهج المقاييس :

كتاب المقاييس ، وكتاب المجمل ، معجمان يسيران في نهج واحد ، ويتبع فيهما المؤلف طريقة واحدة في التلاتيب والتنظيم ، وهي طريقة فاذة في عالم المعجمات العربية .

ولكننا قبل كل شيء نرى ان ندرج هذا المعجم تحت ظل مدرسة الالفباء ، ولكنه يتخذ اسلوبا غريبا يخالف به كل السابقين ومعاصريه ، ولم يتبعه من جاء بعده ، فبقي وحده علما في منهجه وتأليفه .

واليك ما نهجه ابن فارس في معجم المقاييس :

١ ــ قسم مواد اللغة على كتب تبدأ بكتاب الهمزة ، وتنتهي بكتاب الياء .

٢ ــ قسم كل كتاب على ثلاثة ابواب هي : باب الثنائي ثم باب الثلاثي الاصول ، مثل كتب ودرس .
ثم جاء على اكثر من ثلاثة اصول ، مثل دحرج وسفرجل .

٣ ــ التزم ابن فارس بترتيب المواد بالحرف الاول ثم الحرف الذي يليه في ترتيب (ا ب ت ث ج ح خ د ذ ... الخ) ، فلو اردنا حرف الجيم مثلا ، فانه يضعه اول الباب ثم ما يليه من ترتيب (الف باء ... » وهو الحاء ثم ما يلي الحاء وهو الخاء : (جحخ) وهي مهملة ، وتليها : جحد ، لانه حين يترك الخاء يأخذ بعدها الدال ، ثم الذال : جحذ ، جحر ، جحز ، جحس ، جحش ، جحص ، جحض ... الى (جحا وجحو) وحين ينتهي من الياء يبدأ بالهمزة ، فالياء فالتاء :
جحأ ، جحب ، جحت ، جحث ، وهي آخر كلمة في الترتيب .

ولنأخذ مثلا آخر على طريقته ، فانت تريد ان تستخرج كلمة (درس) من معجم المقاييس ، لك ان تستخرج حرف الدال اولا ، وتفتش عما يليه في ترتيب (ا ب ت ث ... الخ) وهو الذال فتجد (د ذ) وما يثلثهما فتتركه لانك تريد (د ر) وما يثلثهما . فتجد هذا الباب مرتبا على الشكل الآتي :

د ر ز ، د ر س . وهنا تقف على الكلمة مباشرة لانها وقعت ثانية في منهج ابن فارس ولو حاولت التفتيش عن (د ر د) مثلا فانك ستجدها في آخر هذا الباب وذلك انه يتناولها بعد الانتهاء من : د ر ز ، د ر س ، د ر ش ، د ر ص ، د ر ض ، د ر ط ، د ر ظ ، د ر ع ، د ر غ ، د ر ف ، د ر ق ، د ر ك ، د ر ل ، د ر م ، د ر ن ، د ر ه ، د ر ى ثم يعود الى الهمزة : د ر أ ، د ر ب ، د ر ت ، د ر ث ، د ر ج ، د ر ح ، د ر خ ، د ر د ، د ر ذ .

فانت تجد انها طريقة خاصة لم تعرف الا عند ابن فارس ، ولم يجاره فيها احد ، وقد يكون بينه وبين ابن دريد في الجمهرة شيء من الالتقاء الا ان ابن دريد اتخذ طريقة التقليب للمادة بدلا من العودة الى الحروف المتروكة عند ابن فارس .

اساس البلاغة للزمخشري

ظلت المعجمات العربية تلتزم بواحدة من المدرستين المعروفتين مدرسة المخارج التي ابتدعها الخليل بن احمد ، ومدرسة الالفباء التي ابتدعها ابو عمرو الشيباني ، وتطورت كل من المدرستين نحو الاحسن ، فكان كما رأينا ان لقيت مدرسة العين تطويرا على يد ابن دريد (٣٢١ هـ) حين ترك المخارج والتزم الالفباء ، ولكنه طبق سائر منهج الخليل في تضاعيف (جمهرته) ، ووجدت مدرسة الالفباء تطويرا ايضا ، فانتقلت بعد ما يزيد على سبعين عاما من مدرسة (صدر المواد) الى (التقفية) على يد ابي بشر البندنيجي (٢٨٤ هـ) وكانت مع ذلك تحتاج الى تطوير اكثر دقة ، واسلم سبيلا حتى جاء الجوهري ، فاستفاد من طريقتي الشيباني والبندنيجي ، فجعل القافية بابا والحرف الاول من المادة فصلا وادخل تعديلا دقيقا وهو الالتزام بترتيب الحروف الوسطى للكلمة ، بالالف باء ، وبذلك يكون قد تخلص من الغموض الذي سبقته من معجمات اللغويين . وسارت طريقته هذه واضحة عند من اقتدى به بعده .

غير ان هذا المنهج المتطور عند الجوهري لم يلق صدى عند آخرين من المشتغلين في ميادين اللغة ، والمعجمات ، فاوجدوا لانفسهم مناهج اخرى اكثر دقة ، واجمل تنظيما وترتيبا ، وايسر تناولا ، فكان الامام الزمخشري جار الله محمود بن عمر ابو القاسم الخوارزمي المفسر النحوي اول من يختط لنفسه منهجا مخالفا لمناهج المتقدمين سهل المأخذ واضح الاسلوب والطريقة .

لقد ذهب بعض الباحثين [١] الى ان الزمخشري تابع في منهجه لابي المعالي محمد بن تميم البرمكي اللغوي الذي كان موجودا في حياة الجوهري ، اذ كان

---

(١) احمد عبد الغفور عطار : الصحاح ومدارس المعجمات : ١١٢ ، ١٣٢ .

الجوهري قد انتهى من (صحاحه) فتناوله البرمكي سنة (٣٩٧ هـ) ورتبه على الطريقة الحديثة التي نضع الزمخشري اماما لها في هذا المبحث [١] وتبقى هذه الطريقة باسم الزمخشري حتى ظهور كتاب البرمكي . ولا بد لنا هنا ان نعرف بالزمخشري قبل الخوض في توضيح منهجه في (الاساس) .

ولد جار الله محمود بن عمر بن احمد ابو القاسم الزمخشري الخوارزمي بزمخشر يوم الاربعاء السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧ هـ .

ولازم منذ طفولته مجالس الادب والاقراء ، وتوجه الى العلم يغترف من ينابيعه ويحفظ القرآن ، ويروى الحديث ، فكان يتتلمذ بالادب على ابي نصر محمود بن جرير الضبي الاصبهاني وابي الحسن علي بن المظفر النيسابوري ، واخذ الحديث عن شيخ الاسلام في عصره ابي منصور نصر الحارثي ، وعن ابي سعد الشفاني [٢] .

ثم رحل الى بخارا ولازم فيها علماء كثيرين ، وأخذ عنهم ، ورحل الى بغداد قاصدا الحج ، والتقى فيها بابي السعادات هبة الله بن الشجري الذي جاء ليهنئه بقدومه ، فلما جلس اليه انشده الشجري متمثلا :

كانت مساءلة الركبان تخبرني
عن احمد بن دؤاد اطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت
أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وأثني على الزمخشري كثيرا ، فلما فرغ الشجري من حديثه شكر له الزمخشري ثناءه ، ومدحه باجمل مما مدح [٣] .

لقد اصيب الزمخشري في احدى رحلاته العلمية بداء في رجله مما دعا الى قطعها فصنعت له رجل من خشب ظل يتنقل بها حتى وفاته سنة ٥٣٨ هـ .

لقد الف الزمخشري مجموعة كبيرة من الكتب ذات القيمة العلمية والادبية واللغوية ، منها تفسيره (الكشاف) الذي وضعه عند مجاورته بيت الله الحرام ، وقد مدحه هو فقال :

ان التفاسير في الدنيا بلا عدد
وليس فيها لعمري مثل كشافي

---

(١) من كتاب البرمكي قطعة في ست ورقات بمكتبة كوبيريللي تحت الرقم : ٢/١٥٢١ ومنه جزء عند ابراهيم صمدي الخربوطلي امين مكتبة عارف حكمة بالمدينة يقع في مئة ورقة .

(٢) معجم الأدباء : ١٤٧/٧

(٣) انظر المعجم : ١٤٨/٧

فان طلبت الهدى فالزم قراءته
فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

وكتاب (الفائق) في غريب الحديث ، وهو معجم خاص ، وقد طبع في مصر باربعة اجزاء ، وكتاب (غريب الاعراب) : غريب اعراب القران ، واطواق الذهب في المواعظ ، ومعجم الحدود والنموذج في النحو ، والمفصل في النحو وقد طبع ، كما طبع شرحه لابن يعيش : ٦٤١ هـ . والامالي في النحو والقسطاس في العروض وشرح المقامات الزمخشرية ، والمستقصى في الامثال ، وربيع الابرار في الادب والمحاضرات ، وغيرها وهي كثيرة [١] .

أما كتابه (اساس البلاغة) فهو معجم عظيم الفائدة كبير القدر ، على الرغم من اقتصاره على نوع من اللغة ، وهي لغة المجاز ، وذلك انه وضعه ابو القاسم الزمخشري في المفردات التي تغيرت دلالتها من الحقيقة الى المجاز ومن الاصل الذي وضعت له الى المعنى الجديد الذي تستعمل فيه حتى عصر المؤلف ، وفي هذا المنحى يقول مؤلفه في مقدمته « النظر فيما كان الناظر فيه على وجوه الاعجاز اوقف ، وباسراره ولطائفه اعرف حتى يكون صدر يقينه اثلج وسهم احتجاجه افلج ، وحتى يقال هو من علم البيان حظي ، وفهمه فيه جاحظي ، والى هذا الصوب ذهب عبد الله الفقير اليه محمود بن عمر الزمخشري عفا الله عنه . في تصنيف كتاب اساس البلاغة » [٢] . وقد اتضح من تفسير المفردات ان المؤلف قد التزم الفصيح من اللغات ، والمليح من البلاغات ، والمسموع من الاعراب في بواديها والمطروق في شعر الرجاز والشعراء ، والمطالع في بطون الكتب ومتون الدفاتر « من روائع الفاظ ... وجوامع كلم » . [٣] .

وحدّد الزمخشري خصائصه بانه « تخير ما وقع في عبارات المبدعين » و « استعمالات المعلقين » و « ما جاز وقوعها فيها ... من التراكيب التي تملح وتحسن » و « الوقوف على مناهج التركيب والتأليف » و « افراد المجاز عن الحقيقة والكناية عن التصريح » [٤] .

ويبدو ان المؤلف قد نهج نهجا مسبوقا اليه ، فهو لم يدع فيه انه ابدع

---

(١) انظر المعجم : ١٥١/٧
(٢) مقدمة الاساس : ج
(٣) نفسها : د
(٤) مقدمة الاساس : د .

طريقته ، بل قال : « قد رتّب الكتاب على اشهر ترتيب تداولا ، واسهله متناولا ، يهجم فيه الطالب على طلبته موضوعة على طرف التمام وحبل الذراع ، من غير ان يحتاج في التنقير عنها الى الايجاف والايضاع والى النظر فيما لا يوصل الا باعمال الفكر اليه ، وفيما دقق النظر فيه الخليل وسيبويه »[1] .

وانما كانت اشارة الزمخشري الى ان طريقته مألوفة مشهورة متداولة لعلمه بوجود من سبقه اليها وهو الامام محمد بن تميم البرمكي الذي رتب كتاب الصحاح كما سبقت الاشارة ترتيبا جديدا مخالفا به كل السابقين ، وهي الطريقة التي سار عليها فيما بعد اصحاب المعجمات حتى عصرنا الحاضر ، فكانت بحق اساسا للمعجميين العصريين .

وتتلخص هذه الطريقة بما يأتي :

١ ــ اخذ الزمخشري بنظام : ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ... الخ ، وأخل في آخره بتقديم الواو على الهاء فكانت الحروف المتأخرة على الشكل الآتي : م ن و هـ ى في حين كان الترتيب المعروف لها : م ن هـ و ى[2] .

٢ ــ قسم الكتاب على ثمانية وعشرين بابا ، لكل حرف باب ، فباب الهمزة وهو اولها ، ثم باب الباء فباب التاء فباب الثاء وهكذا .

٣ ــ اخذ بترتيب حروف المواد ، مراعيا في ذلك الحرف الاول فالثاني ثم الثالث ، ويصدّر تفسير المواد بقوله : (الباء مع الهمزة) و (الباء مع التاء) و (الباء مع الثاء) و (الباء مع الجيم) و (الباء مع الحاء) فالباء مع الخاء وهكذا .

فاذا جاء الى الحرف الثالث اخذ بالترتيب عينه ، فبدأ بالهمزة ثم بالباء فالتاء فالثاء حتى آخر الحروف . ولنأخذ مثالا لذلك (الراء مع الباء)[3] .

الراء مع الباء : ربأ ، ربب ، ربت ، ربث ، ربح ، ربخ ، ربد ، ربذ ، ربس ، ربص ، ربض ، ربط ، ربع ، ربق ، ربك ، ربل ، ربو .

ثم يأخذ بعده بالراء مع التاء وهكذا .

ويلاحظ انه اهمل من المواد : (ربج وربر وربز وربش وربظ وربغ وربف وربم وربن وربه) وذلك راجع الى امرين هما :

---

(١) نفسها : د .

(٢) انظر اساس البلاغة : ص ٩٢٤ فما بعد (ط : الدار) .

(٣) اساس البلاغة : ٣١٢ .

أ ــ عقم تأليف الكلمة في كلام العرب ، فهي مهجورة مهملة في الكلام اصلا ، ومن ذلك ، مثلا ، (ربم) فهو مهمل [١] ، عند اللغويين الا ابن الاعرابي فعنده هو الكلأ .

ب ــ لزوم المادة معناها الحقيقي ، دون تحولها الى معان مجازية ، مستعارة ولذا فهي لا تدخل في منهج المؤلف ، كمادة (ربم) المشار اليها ، و (ربج) و (ربز) [٢] وغيرها .

لقد تميزت هذه الطريقة بسهولة الكشف عن المواد ، ويسر مراجعتها في مواضعها ، ولذلك لقيت رواجا وشهرة عند الكثيرين من المتقدمين والمعاصرين ، فقد نسج على منوالها الامام الفيومي (٧٧٠ هـ) في كتابه (المصباح المنير) وهو على صغر حجمه ، مفيد نافع ، ويعد هذا المعجم من المعجمات الخاصة لانه وضعه الفيومي (٧٧٠ هـ) في لغة الفقه الحنفي وهو مطبوع متداول ، بقطع متوسط .

وتناولت المعجمات الحديثة هذه الطريقة ، لسهولتها ولجدواها فألف الشرتوني (اقرب الموارد) ولويس المعلوف (المنجد) والبستاني (البستان) و (محيط المحيط) [٣] . وغير ذلك .

ورتبت بين المعجمات القديمة على هذا النهج وطبعت حديثا كما فعل بلسان العرب وفي (الوسيط) وفي (مختار الصحاح) وغيرها .

---

(١) التهذيب : (ربم) ، واللسان (ربم) : ١١٥/١٥

(٢) القاموس : ١٨٢/٢

(٣) دائرة المعارف الحديثة : مادة (عجم) : ٦٣٨ .

مدرسة الموضوعات
والغريب المصنف لابي عبيد (٢٢٤ هـ)

هناك منهج شذّ عن ترتيب الحروف المعجمية على (الالفباء) او (المخارج) واتخذ سبيله بعيدا عن هذه الالتزامات التي تميزت بها المدارس المعجمية التي اوردنا ذكرها فيما مضى .

فقد نهج جملة من علماء اللغة منهجا جديدا ، ولد مبكرا ايضا على رائد هذه المدرسة الامام ابي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ هـ) الا وهو وضع المعجم اللغوي مقسما الى موضوعات ومعان عوضا عن وضعه مرتبا على الهجاء .

ولقد ذهب بعض الباحثين الى ان هذا الشكل من المعجمات قد سبقت اليه امم كثيرة قبل العرب ، وان معجم (يوليوس بولكس اليوناني) كان موضوعا على هذه الطريقة ، الا انه « مما لا شك فيه ان ابا عبيد لم يقلد يوليوس بولكس ، بل ابتدعه ابتداعا لانه جمع اشتات الكتب الصغيرة المؤلفة بحسب المعاني والموضوعات ، وجمعها في (غريبه) ، وقسمها ابوابا سماها كتبا »[١] .

وأبو عبيد هذا هو القاسم بن سلام الهروي ، ولد حوالي سنة (١٥٧ هـ) ولازم منذ صغره اهل العلم والادب ، كأبي زيد الانصاري وابي عبيدة معمر بن المثنى والاصمعي وابي محمد اليزيدي (٢٠٢ هـ) وغيرهم من البصريين ، واخذ عن الكوفيين كابي عبد الله بن الاعرابي (٢٣١ هـ) وابي زياد الكلابي ، ويحيى بن سعيد الاموي (١٩٥ هـ) وابي عمرو الشيباني والفراء والكسائي »[٢] .

ورحل الى مكة المكرمة وجاور بها ، سنة ٢١٤ هـ ، واقام بها حتى مات سنة ٢٢٤ هـ ، وعمره سبع وستون سنة . لقد خلف ابو عبيد كثيرا من الكتب الجليلة المقدار في ابوابها (كالغريب المصنف) الذي سنتحدث عن منهجه فيه

---

(١) الصحاح ومدارس المعجمات : ١٢٤ ــ ١٢٥
(٢) المعجم : ياقوت : ١٦٢/٦

(وغريب القرآن) و (غريب الحديث) و (معاني القرآن) و (المقصور والممدود) و (القراءات) و (المذكر والمؤنث) و (الاموال) و (النسب) و (الناسخ والمنسوخ) و (فضائل القرآن) وغيرها .

اما كتابه (الغريب المصنف) فقد جاء فريدا في عصره ، وقد جاراه بعده جملة من علماء المعجمات .

لقد تقوّل فيه بعض الاقدمين ، فقال : « اما كتابه المترجم بالغريب المصنف فانه اعتمد فيه على كتاب عمله رجل من بني هاشم جمعه لنفسه ، واخذ كتب الاصمعي ، فبوّب ما فيها ، واضاف اليه شيئا من علم ابي زيد الانصاري ، وروايات عن الكوفيين » [1] .

وهو تقوّل محتمل ، لان صاحب هذا النقد لم يقف عند هذا الكتاب وحده بل زعم انه في كتابه (غريب الحديث) اعتمد على كتاب ابي عبيدة ، وكذلك في كتابه (غريب القرآن) فقد زعم انه انتزعه من كتاب ابي عبيدة ، ثم قال فيه : « وكان مع هذا ثقة[1] .

ولكن الذي يجعلنا نميل الى عدم الاخد بقول الناقد انه لم يذكر لنا هذا الرجل المنسوب الى بني هاشم ، ولا اسم كتابه ، وزعم انه عمله لنفسه ، ويقوّى ثقتنا بان (الغريب المصنف) من ابداع ابي عبيد ، واجتهاده الخاص انه قال فيه : « عملت كتاب غريب المصنف في ثلاثين سنة ، وجئت به الى عبد الله بن طاهر فأمر لي بألف دينار » وقال الجاحظ فيه : « لم يكتب الناس أصح من كتبه ولا اكثر فائدة » ولما اهدى كتابه (غريب الحديث) الى عبد الله بن طاهر قال فيه : (ان عقلا بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب لحقيق الا يحوج الى طلب معاش واجرى له في كل شهر عشرة الاف درهم » [2] .

كل ذلك يحول دون تصديق ما ادّعى عليه من التسلط والانتحال .

منهجه في الغريب المصنف :

لقد وضع ابو عبيد معجمه هذا على الموضوعات والمعاني ، مستفيدا من الرسائل الصغيرة في موضوعات اللغة وانواعها ، كالاجناس ، والحيوان والنبات ، وخلق الانسان ، واللباس ، والانواء وغيرها .

---

(١) معجم ياقوت : ١٦٢/٦ ـ ١٦٣

(٢) معجم ياقوت : ١٦٣/٦

حشر فيه ما ينيف على سبعة عشر الف مادة لغوية مفسرة (1) موزعة بين ما ينيف على ثلاثين بابا في خلق الانسان والنساء ، واللباس والطعام والشراب ، والسموات والارض والرمل والخيل ، والسلاح والانواء ، والأبل ، وسمى كل موضوع من هذه الموضوعات كتابا ، ودرج تحته جميع ما يتعلق بالموضوع من امور فالابل او الخيل او الانسان موضوعات عامة ، تتفصل الى مباحث جزئية كثيرة فمن اراد معرفة صفات الخيل والوانها ، واظمائها وسرعة جريها ، وهجانها ، واصائلها ، واسمائها ، وطبائعها وجد ضالته تحت موضوع الخيل ، ومثل ذلك يقال في النبات والانواء واللباس وغيرها .

الا ان هذه الطريقة صعبة الارتياد ، لا يهتدى طالب الحاجة فيها الى مبتغاه بسهولة ، وذلك ان كثيرا من المفردات والصفات تشترك فيها الاحياء والجمادات او الانسان والحيوان فلا يهتدى اليها الا بعد الجهد والتعب .

ومع ذلك فقد نسج على منواله كثير من ائمة اللغة ، كعلي بن الحسن الهنائي ابي الحسن المعروف بكراع النمل (2) (حوالي ٣١٠ هـ) فقد وضع كتابه : (ما اتفق لفظه واختلف معناه) على هذه الطريقة . ولكنه وضع كتابه (المنضد) على حروف ا ب ت ث ... الخ الحروف واختصره في (المجرد) ثم اختصره في (المنجد) .

ويمكن القول : ان ابا منصور الثعالبي (٤٢٨ هـ) كان من جملة من سار على نهج ابي عبيد في كتابه الموجز (فقه اللغة) فهو مرتب على الموضوعات كذلك .

اما كتاب (المخصص) لابن سيده (٤٥٨ هـ) فقد تأسّى به في هذا المعجم ، وزاد عليه كثيرا ، وهو مطبوع متداول . وقد تبعه في عصرنا الحاضر عبد الفتاح الصغيري وحسين يوسف موسى في كتابهما (الافصاح) (3) .

المعجمات الخاصة

ان المعجمات التي وضعها مؤلفوها في عامة اللغة ، دون ان يخصوها بنوع من انواعها ، او بموضوع من موضوعاتها اطلق عليها (معجمات عامة) .

والمعجمات العامة تشتمل على (الغريب) و (النوادر) و (المطرد)

---

(1) منه نسخة في دار الكتب المصرية ، ومصورتها في المجمع اللغوي بالقاهرة ومنه نسخة في المانيا .

(2) معجم الأدباء : ١١٢/٥ .

(3) الصحاح ومدارس المعجمات : ١٢٥ .

و (الشاذ) و (القياس) و (المسموع) دون ان تستثني شيئا من ذلك ، فان افرد شيء من هذا كله في كتاب مرتب ترتيبا معجميا ، كالمناهج التي اشرنا اليها فيما مضى من البحث سمي ذلك المعجم معجما خاصا .

ومن هنا كان المعجم الخاص ، كل كتاب انتهج فيه صاحبه طريقة معجمية في تبويبه وتفصيله ، وترتيبه واستخدم فيه اسلوب التفسير والاستشهاد ، على طريقة المعجمات العامة .

ومن هنا ايضا نستطيع ان نضع ايدينا على جملة من المعجمات التي تنضوي تحت موضوع المعجمات الخاصة في التأليف اللغوي العربي ، من ذلك ما الفه اللغويون في لغة الفقه والتشريع ، ولغة قبيلة ما من قبائل العرب ، ومفردات الطب او الصيدلة ، ومعجمات البلدان والمواضع والامكنة ، ومعجمات (النبات) و (الحيوان) .

فغريب الحديث لأبي عبيد ، هو معجم خاص ، واساس البلاغة للزمخشري معجم خاص ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي معجم خاص ... وهكذا شأن كل المعجمات التي تتخذ جانبا من جوانب الحياة العامة بشكل مفهرس ومبوب تبويبا معجميا ، عرفته المدارس المعجمية ، وانتهجته في وضع كتبها المعجمية .

الباب الثالث

علم البلاغة

البلاغة في اللغة والاصطلاح

البلاغة في اللغة مصدر الفعل (بلُغ) من باب (كرُم) الدالّ على الصفات اللازمة ، فيقال : « بلُغ الرجل بلاغة فهو بليغ ، وهذا قول بليغ ، وتبالغ في كلامه ، وليس من أهلها ، وما هو ببليغ ولكن يتبالغ »[1] .

وهو في دلالته لا يبعد عن الفعل الآخر من (نصَر) الأول ، فقولنا : (بلَغ يبلُغ) بمعنى انتهى الى الغاية ، وبلوغ اللسان غايته في التعبير والافصاح ، هو الذي يَسِمه بسمة البلاغة .

ومن هنا جاءت كراهية الرسول (ص) لأنبعاق اللسان في الكلام ، والبعد عن الافصاح . تكلّم رجل عنده (ص) فقال له : « كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال : شفتاي وأسناني ، فقال له (ص) : « انّ اللّه يكره الانبعاق في الكلام ، فنضّر اللّه وجه رجل أوجز في كلامه ، واقتصر على حاجته » .

وسُئل النبي (ص) : فيم الجمال ؟ فقال : « في اللسان » وقد أراد النبي باللسان : « البيان » [2] .

ولما كان البيان في اللسان يورث الجمال ، ويعدّ من تمام الشخصية ، كان

---

(۱) اساس البلاغة : الزمخشري ٦٢

(۲) العمدة : ابن رشيق ۲٤١/١

له أثر كبير عند العرب في الجاهلية والاسلام ، فباللسان يمتدح الرجل ، وبه يُغَضّ من مكانته ويعاب ، وفي (البيان والتبيين) للجاحظ صور غريبة وعجيبة من مقامات الرجال وألسنتهم ، وفي حدود هذه الموازين ، قال أصحاب المنطق : « حدّ الانسان : الحيّ الناطق ، فمن كان في المنطق أعلى رتبة كان بالانسانية أولى ، وقالوا : الروح عماد الجسم ، والعلم عماد الروح ، والبيان عماد العلم » . [١] .

واتخذ مفهوم البلاغة الاصطلاحي تحديداً متميزاً عند العلماء في العصور الاسلامية ، ومال في غالبه الى الايجاز في اللفظ ، والاتساع في المعاني ، فمن تلك الحدود قولهم : « انّ البلاغة قليل يفهم ، وكثير لا يسأم » . وقال آخر : « البلاغة إجاعة اللفظ ، وإشباع المعنى » . وسئل اعرابي : « من أبلغ الناس ؟ فقال : أسهلهم لفظا ، وأحسنهم بديهة » [٢] ، الى غير ذلك من الأقوال ، وهي جميعها تجري في نسق واحد من التحديد لمفهوم هذا الفن .

وقد جرى الاتساع في موضوعاته وفروعه أن أصبح له مصطلحات وأسماء ، ولكلّ مصطلح منها مفهوم يختلف عن الآخر ، وفي كلام علي بن عيسى الرمّاني (ت ٣٨٥ هـ) في أصل البلاغة ما يقف بنا على تحديد دقيق لمصطلحاتها وضروبها ، يقول الرمّاني : « أصل البلاغة الطبع ، ولها ــ مع ذلك ــ آلات تعين عليها ، وتوصل للقوة فيها ، وتكون ميزانا لها ، وفاصلة بينها وبين غيرها ، وهي ثمانية أضرب : الايجاز ، والاستعارة ، والتشبيه ، والبيان ، والنظم ، والتصرّف ، والمشاكلة ، والمثل » .

على ان البلاغة بمفهومها الاصطلاحي الكبير الذي اصبحت به علما مفصولا عن سائر علوم العربية الاخرى ، له اصوله وقواعده ، ومناهجه العلمية الدقيقة ، وتصانيفه الخاصة به ، لم يكن واضحا في أذهان العلماء الأوائل ممّن تكلموا في حدوده وتعريفه الا بعد ان دخل القرن الثالث الهجري على يدي ابي عبيدة والجاحظ والمبرد ويحيى بن جعفر ، كما سيأتي إيضاحه .

---

(١) العمدة : ٢٤٢/١
(٢) العمدة : ٢٤٣/١

تطوّر مفهوم البلاغة ودراساتها :

يذهب بعض الدارسين [1] الى ان مفهوم (البلاغة) بوصفها علما من علوم اللسان العربي لم يتخذ وضعه الاصطلاحي المألوف الا عند أبي عبيدة معمر بن المثنى في كتابه (مجاز القرآن) بعد أن سئل عن معنى قوله تعالى : « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » ، فأجاب بأنه كقول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فالعرب « لم تر الغول قطّ ، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به » فاستحسن السائل جواب أبي عبيدة ، فقال أبو عبيدة « فعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا في القرآن في مثل هذا وما شابهه ، وما يحتاج اليه من علمه ، فلما رجعت الى البصرة عملت كتابي الذي سميّته المجاز » [2] .

والحق ان عمل ابي عبيدة في هذا الفن ليس بداية فحسب ، بل هو تشريع لمن جاء بعده ، بحيث اصبح دستوراً يستمد منه ويتوسع فيه ، وقد كانت معرفة البلاغة مقصورة على بضعة اسئلة يطرحها سائلون فيجاب عنها بعبارات مبتسرة موجزة ، أو تأتي عرضا في كتاب نحو أو لغة ، أو تقع عفواً في شرح آية أو مثل ، مما شاع في مطلع القرن الثاني ، غير انه ينبغي ان نتنبه الى عناية العرب في خطبهم ورسائلهم ببلاغة القول وتأثيره في النفوس .

وكتاب ابي عبيدة انطوى على كثير من الاشارات الى الفنون البلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية والتقديم والتأخير والايجاز والالتفات والاستفهام ، وسواها [3] .

وعمل ابي عبيدة يلمح الى عناية اللغويين بالبلاغة فقد ادلوا بدلوهم في الدلاء من التلميح للمسائل البلاغية ، على نحو ما اصطنعه ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في كتابه « تأويل مشكل القرآن » ، والمبرد في « الكامل » ، اذ وقف فصلا كاملا فيه على التشبيه .

ولعل اتجاه عمرو بن عثمان بن محبوب الجاحظ (١٥٠ ـــ ٢٥٥ هـ) ، الى جمع مادة البلاغة في كتابه « البيان والتبيين » ، وقد جلّى فيه دليل على ما

(١) ينظر : الزيات في تاريخ الادب العربي ٣٧٥ . والى مثل هذا ذهب الدكتور طه حسين في كتابه (تجديد ذكرى ابي العلاء) ٩٧ ، غير ان ابراهيم مصطفى جعله كتابا نحويا (احياء ١٢) ، وعدّه امين الخولي كتابا في التفسير (مناهج تجديد ١١٣) ، وينظر : مناهج بلاغية ٨٤ .

(٢) معجم الادباء (طه مركليوث) ١٦٧/٧ ، ١٦٨

(٣) ينظر : مناهج بلاغية ٨٥ ، ومجاز القرآن ١٨/١ ، ١٩ .

كان للعرب من عناية بالبلاغة اذ جمع ما تفرق من فنون القول ، غير انه لم يصل الى تحديد مصطلح البلاغة ، فقد كان يرادف بينها وبين البيان الذي جعله عنوان الكتاب ، وقد نقل فيه اقوال الامم الأخرى في تعريف البلاغة (١) .

وكان للجاحظ فضل السبق في التعرض لفنون البلاغة ، وتحدّث عن صفات البليغ ، من مثل حسن مخارج الالفاظ ، واختيارها ، فتحدث عن جزالتها وضعفها ، وبهائها وغرابتها ، وصلة هذه الالفاظ بنفس المنشيء خطيبا أو أديبا .

ولقد انبثت في كتاب « البيان والتبيين » جملة من المصطلحات البلاغية التي تحددت تعاريفها بعد ذلك من بديع ، وتشبيه ، ومجاز واستعارة ، وان كان ذكر أن البديع « مقصور على العرب ، ومن اجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان » (٢) ، وأن متقدمي الشعراء كالراعي النميري قد سبقوا اليه قبل الشعراء المولّدين .

على أن الجاحظ لم يقصر مباحث البلاغة على « البيان والتبيين » ، بل كان يعرض لها في كتبه حيث واتته المناسبة ، ولقد طغى في « الحيوان » على مسائل التشبيه طغيانا لافتا للنظر (٣) .

وقد استعمل المجاز والحقيقة بمعناهما الاصطلاحي الذي جرى عليه المتأخرون* .

ولعل منبع عناية الجاحظ كونه معتزلياً ، اذ كان المعتزلة ذوى فضل لا يجحد على الدرس البلاغي ، فقد بدت أولى المَلاحِظ البلاغية عند النظام ، وبشر به المعتمر ، ثم الجاحظ . وقد كان المعتزلة يحتكمون الى بلاغة القول فيما يثور من مناقشات ومساجلات في المساجد وفي سواها ، وقد كانت المذاهب تتصارع ، والناس يشهدون ذلك كله ، فيميلون مع من يستطيع ان يخلب البابهم بالحوار والمجادلة المقنعة .

ولعل من أهم آثار المعتزلة الاوائل في هذا الباب صحيفة بشر بن المعتمر (٤) .

وأنه لمن أهم قضايا النقد والبلاغة ، ونحن حتى الآن لا يسوغ لنا ان نفصل بينهما ، هي قضية اللفظ والمعنى التي اولاها الجاحظ عناية خاصة ، لأن

---

(١) البيان والتبيين ٨٨/١
(٢) نفسه ٥٥/٤
(٣) ينظر : الحيوان (على سبيل التمثيل) ٢١١/١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٤١/٤ ، ٢٣/٥ ، ٢٥ ، ٥٧٦ ، ٣٥٤/٦
(*) البلاغة تطور وتاريخ ٥٦ ، وينظر الحيوان ٢١٢/١
(٤) ينظر : البيان والتبيين ١٣٥/١ فما بعدها .

المعاني مطروحة في الطريق ، والعبرة بالصياغة وحسن نسيج الكلام ، وان كان أحيانا لا يميز اللفظ على المعنى ، ولا المعنى على اللفظ ، لأن المرء يصل الى المعنى الحسن بالاسلوب الحسن [١] ، ويميل الى تحديد ذلك بأن الالفاظ على قدر المعاني [٢] .

ولعل اتجاه الجاحظ الى جمع مبادىء البيان والمعاني والبلاغة يعدّ خطوة الى التأسيس والبناء في (علم البيان) واتجاهاته الموضوعية المتميزة .

وقد المح ابن خلدون الى هذا التميز في هذا العلم ، فقال : « علم البيان حادث في الملّة بعد علم العربية واللغة ، وهو من العلوم اللسانية ، لأنه متعلق بالألفاظ ، وما تفيده ، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني »[٣] ، وقد ميّز ابن خلدون بين « علم النحو » الذي بني على تغيّر الحركات من الاعراب وابنية الكلمات ، و (علم البيان) الذي بني على « البحث عن الدلالة التي للهيئات والاحوال والمقامات » وجُعِل علي ثلاثة اصناف :

١ ــ الصنف الاول : يبحث عن هذه الهيئات والاحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ، ويسمّى (علم البلاغة) .

٢ ــ والصنف الثاني : يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه ، وهي الاستعارة والكناية ، ويسمى (علم البيان) .

٣ ــ وأُلحق بهما صنف ثالث ، وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق ، أما بسجع بفصله ، أو تجنيس يشابه بين الفاظه او ترصيع يقطع ، أو تورية عن المعنى المقصود بابهام معيّن اخفى منه ، لاشتراك اللفظ بينهما ، وأمثال ذلك ، ويسمّى عندهم (علم البديع) .

ثم يقول ابن خلدون : « واطلق على الاصناف الثلاثة عند المحدثين اسم (البيان) ، وهو اسم الصنف الثاني ، لان الاقدمين اول من تكلموا فيه ، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة ، وامثالهم املاءات غير وافية فيها »[٤] .

والواقع اننا اذا استقصينا دراسات اللغويين وغيرهم في القرن الثالث للهجرة لا نقع على كتاب يعطينا صورة كاملة عن « علم البلاغة » ، وأصوله التي استقر عليها في القرن الخامس على يد الجرجاني ، ثم

---

(١) نفسه ١/١٤٤
(٢) ينظر : الحيوان ١/٨٨
(٣) مقدمة ابن خلدون ٥٥٠
(٤) نفسه ٥٥١ ، ٥٥٢ .

السكّاكي ، فأما كتاب (البلاغة) [1] ، للمبرد (ت ٢٨٦ هـ ، فانه لا يتصل بفن البلاغة بمعناه الاصطلاحي الا بسبب واه .

ونقل لنا ياقوت عن جعفر بن احمد المروزي (ت ٢٧٤ هـ) ، وهو من علماء القرن الثالث ان له كتابا بعنوان (البلاغة والخطابة) [2] ، الواضح من عنوانه انه قصد الى فصاحة لسان الخطيب ، وسلامة عبارته ، وحسن بيانه ، وليس ذلك ممّا نحن بصدده من (علم البلاغة) .

أما أحمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١ هـ) فقد صنف مختصرا سمّاه (قواعد الشعر) ، عرض فيه لقواعده مشيراً في ثناياه الى التشبيه [3] ، والاستعارة [4] ، والمطابق [5] .

بعد هذه الطائفة من الدارسين يخطو الدرس البلاغي من مرحلة الملاحظ والاشارات الى مرحلة التأليف المتخصص ، وقد اصبحت الحياة العقلية خصبة جدا بالدراسات اللغوية والفلسفية ، والمذاهب الكلامية ، وشيوع مترجمات اليونان والسريان ، وبذلك نما العقل العربي نموا اباح له القدرة على الفحص والموازنة والاستنباط والتقسيم ، وكان للمعتزلة ، بلا ريب ، فضل لا ينكر على الدرس البلاغي ، لانهم اتخذوا البلاغة وسيلة لمجابهة الخصوم ، والردّ على أهل الالحاد .

مرحلة التأليف المستقل

وهكذا شهد اواخر القرن الثالث الدراسات البلاغية والنقدية ، والتأليف فيها ، فوضع ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) كتابه « البديع » .

والبديع هو الفن الثالث من فنون البلاغة ، والآخران : المعاني ، والبيان ، وهو التقسيم الذي ارتضاه البلاغيون بعد ، ومن ثم يعد ابن المعتز مؤصل فن البديع ، وراسم صورته المنهجية الاولى وقد قسمه على خمسة ابواب : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة (او الطباق) ، ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهبَ الكلامي . واضاف اليها ابن المعتز محاسن اخرى هي :

---

(١) نشره رمضان عبد التواب في القاهرة
(٢) معجم الأدباء ١٣٧/٧
(٣) قواعد الشعر ٣٩ ، ٤٠
(٤) نفسه ٥٧
(٥) نفسه ٦٤

الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدح بما يشبه الذمّ ، وتجاهل العارف ، والهزل يراد به الجدّ ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والافراط في الصفة ، وحسن التشبيه ، ولزوم ما لا يلزم ، وحسن الابتداءات .

ونلحظ على هذا القسم :

١ ــ ان الاستعارة جعلت فيما بعد من ابواب البيان .

٢ ــ وانه أفاد من الجاحظ في ايراد المذهب الكلامي ، وهو مما يُعنى به المتفلسفة في إيضاح الغوامض والمبهمات .

٣ ــ وأنها ليست جميع ابواب البديع التي نعرف .

٤ ــ وأنه قد أفاد من سابقيه ، وكان له فضل التبويب .

وقد كان منطلق ابن المعتز الى وضع كتابه ان يثبت ان العرب والشعراء المتقدمين كانوا يصطنعون البديع ، وأن بشّاراً ومسلم بن الوليد وأبا نواس ، قد أكثروا حتى بلغ القمة بعد ذلك ابو تمام ، وفي هذا ردّ على المنكرين على العرب استخدامهم البديع ، وعلى الزاعمين بعدم معرفة متقدمي الشعراء له . وقد سبقت اشارة الجاحظ الى هذا .

وبعد ، فقد زعم دارسون ان ابن المعتز متأثر بكتابي « ارسطو » : (الشعر) و (الخطابة)[1] غير أنّا لا نلمس شيئا من هذا ، مما يدلّ على نشوء الدرس البلاغي عربيا محضاً [2] .

ويذهب الدكتور شوقي ضيف الى ان اقتصار ابن المعتز على الفنون الخمسة يرجع الى « انها فعلا الفنون التي كانت موضع اخذ ورد بين اصحاب البلاغة العربية الخالصة ، وبين طوائف المتفلسفة ، ومن ينزعون نحو التجديد المسرف » .[3] .

وقد وضع قدامة بن جعفر (ت ٢٩٥ هـ) كتابيه « نقد النثر » و « نقد الشعر » ، وكان قدامة مغالياً في « نقد الشعر » في اعتبار الحدود المنطقية ، وكان منهجه فيه منهجاً عقلياً ، غير انه لم يعن بتقسيم الفنون البلاغية ، ولهذا

---

(١) من هؤلاء الدكتور طه حسين في مقدمة «نقد النثر» ١٢ ، والدكتور نجيب البهبيتي في «ابو تمام الطائي ...» ١٩٦ ــ ١٩٩ ، وينظر : مناهج بلاغية ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) مناهج بلاغية ١٢٥

(٣) البلاغة تطور وتاريخ ٦٩ ، ٧٠

يرى بعض الباحثين ان كتابه ليس « الا صورة جديدة لكتاب (البديع) مع اضافة فنون اخرى كشفت عنها الايام ، وثقافة قدامة الواسعة المتصلة بالتراث العربي ، وما عرف في عهده من التقاء الحضارات » (١) .

وقد قسم كتابه أقساماً ثلاثة : تحدّث في الاول عن تعريف الشعر ، وايضاح عناصره ، وجعل الثاني وقفا على نعوت الشعر الجيد ، وأوكل بالثالث حديثه عن صفات الشعر الرديء .

واذا كان منطلق قدامة منطلقاً نقدياً ، فقد أشار الى بلاغة الاسلوب ، وتحدث عن التتميم ، والايغال ، والمساواة ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتمثيل ، والارداف ، والتصريع ، والسجع ، والجناس .

وقد انفرد قدامة بفنون بلاغية ابتدعها هو من نحو : صحة التقسيم ، صحة المقابلات ، التمثيل ، التوشيح .. وسواها (٢) .

وتلاه ابن وهب الكاتب ، اذ صنّف كتابه « البرهان في وجوه البيان » (٣) ، وقد ذكر دافعه على تأليفه في صدر كتابه ، ثم قال : « وقد ذكرت في كتابي هذا جملا من أقسام البيان ، وفقراً من آداب حكماء أهل هذا اللسان ، لم نسبق المتقدمين اليها ، ولكني شرحت في بعض قولي ما أجملوه .. » (٤) وهذا يدفع ما زُعِم من تأثره باليونان . (٥) .

وقد عرض ابن وهب لتقسيمات تتصل بفن البلاغة ، نحو : المقابلة ، والتشبيه ، والاستعارة ، والحذف ، والصرف أو الالتفات ، والمبالغة ... وغيرها (٦) .

وتلاه ابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ) في كتابه « عيار الشعر » الذي بناه على صنعة الشعر ومقاييسه ، وهو من هذا المنطلق كتاب في النقد ، بيد انه عرض للتشبيه من فنون البلاغة(٧) .

---

(١) مناهج بلاغية ١٧٦

(٢) ينظر : مناهج بلاغية ١٧٧ ، البلاغة العربية : نشأتها وتطورها ٢٠٣ فما بعدها .

(٣) طبع من قبل باسم «نقد النثر» منسوبا لقدامة .

(٤) البرهان ٥١

(٥) يذهب الدكتور شوقي ضيف الى غير هذا . (البلاغة تطوّر وتاريخ ٩٥ ــ ٩٧) .

(٦) البرهان ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٢ ...

(٧) ينظر : عيار الشعر ٣ ، ١٠ فما بعدها .

وكان كتاب الآمدى (ت ٣٧٠ هـ) « الموازنة بين الطائيين » ، كتاباً نقدياً من طراز فريد ، جعله حواراً بين أتباع البحتري ، وأتباع أبي تمام ، عارضاً للموازنة بين اللفظ والمعنى ، وهو قضية نقدية خطيرة شغلت حيزاً من دراسات النقاد والبلاغيين ، وهو كتاب ، له الريادة في باب النقد عند العرب ، وقد تناثرت فيه اشارات بلاغية كالاستعارة ، والتشبيه والجناس ، والمطابقة ... وسواها .

وقد يفضل البحتري على ابي تمام ، لأن أبا تمام قد غاص في المعاني ، وذلك شأن الفلاسفة . ولعل أهم قضية نقدية عرض لها ، هي قضية السرقات الشعرية . [(١)] .

واذا كنّا قد ذكرنا من قبل عناية المفسرين بالبلاغة ، اذا عددنا أبا عبيدة ، وابن قتيبة فيهم ، فان نحوياً مفسراً يطالعنا في هذه المرحلة ، وهي مرحلة القرن الرابع ، هو ابو الحسن علي بن عيسى الرمّاني (ت ٣٧٤ هـ) وهو معتزليّ جمع بين علم الكلام والعربية ، ووضع رسالة صغيرة سمّاها « النكت في إعجاز القرآن » تحدث فيه عن طبقات البلاغة فجعلها ثلاثا اعلاها بلاغة القرآن ، لأنه معجز ، قال : « وإنما البلاغة إيصال المعني الي القلب في احسن صورة من اللفظ فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن وأعلى طبقات البلاغة القرآن » [(٢)] .

وقد وقف الرمّاني عند الايجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، وفواصل الآيات ... وسواها . [(٣)] .

وقد تطوّر الدرس النقدي والبلاغي عند القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) تطوراً كبيراً في كتابه « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، وقد تحدث في مطلع الكتاب عن تأثير الطبع والبيئة في اللفظ والعبارة ، وربط رقة العبارة بالبيئة الحضرية ، وكزازة العبارة بالبداوة ، استرسالاً مع الناقدين الذين عرضوا لقضية اللفظ والمعنى لذا نعى على المتكلّفين تكلّفهم للمعنى ، لأنهم لا يجرون مع الطبيعة ، وعرض لفنية الشعر ملتفتاً الى كثير من فنون البيان من تشبيه ، واستعارة ، ثم تكلم عن عدد من فنون البديع كالجناس والطباق والالتفات .

---

(١) ينظر : الموازنة ٢٩١/١ ، وينظر : ابو القاسم الآمدي لمحمد علي ابو حمدة ٩٢ ، ١٠٠
(٢) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ٦٩
(٣) ينظر : البلاغة العربية : نشأتها وتطورها ٢١٩ ــ ٢٢٥

وكان ابو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) اول من جنح في كتابه « الصناعتين » الى تغليب قضايا البلاغة ، والوقوف عندها طويلا ، وقد صرّح في مطلع كتابه بدافعه اذ قال : « إنّ أحقّ العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ ، بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه ، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى ... » .[١] .

وكانت معرفة علم البلاغة ، عنده ، معينة على تقويم الأسلوب ، وقدرة المنشيء من الشعراء والكتاب على التمييز بين الحسن والرديء ، ولهذا عمد الى وضع كتاب يجمع فيه ما تناثر من أقوال الكتّاب في البلاغة ، خاصة « البيان والتبيين » للجاحظ [٢] .

وقد قسم العسكري كتابه على عشرة ابواب في ثلاثة وخمسين فصلا ، تحدّث فيه عن مفهوم البلاغة ، وفنونها كالايجاز والاطناب ، والتشبيه ، والسجع ، والازدواج ، وفي شرح البديع ...[٣] .

وقد قسم العسكري كتابه على عشرة ابواب في ثلاثة وخمسين فصلا ، تحدّث فيها عن مفهوم البلاغة ، وفنونها كالايجاز والاطناب ، والتشبيه ، والسجع ، والازدواج ، وفي شرح البديع ... [٣] .

وقد عني بوجه خاص بفنون البديع بلون من الاسهاب حتى اوصلها الى خمسة وثلاثين فنّاً .

غير أن العسكري قد خلط بين فنون البديع والبيان على النحو الذي نراه عند التالين ، فعدّ المجاز والكناية فنونا بديعية .[٤]

ومن عناية العسكري بسلاسة العبارة ورونقها وطلاوتها ، وتغليب الاتجاه الأدبي الفني أنه قصد « فيه مقصد صنّاع من الشعراء والكتّاب » [٥] ، لأنه شاء أن يتنكب سبيل الكلاميين ، وبهذا امتاز كتابه بغزارة الأمثلة والشواهد المختارة اختياراً يعتمد على الذوق والجمال الفنّي .

وهو في قضية اللفظ والمعنى يوغل في الحديث عن اللفظ وأثره في صناعة الشعر ، وصناعة الكتابة ، فيقول : « وليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي ، والقروي والبدوي ، وإنّما هو في جودة اللفظ ، وصفاته ، وحسنه وبهائه .. مع صحة السبك والتركيب » . [٦] .

---

(١) كتاب الصناعتين ١

(٢) كتاب الصناعتين ١ ــ ٤

(٣) نفسه ٥

(٤) نفسه ٢٦٨ ، ٣٦٨

(٥) نفسه ٩

(٦) نفسه ٥٧ ، ٥٨ .

غير أنه يستدرك لئلا يتوهم أنّه لا يلتفت الى المعنى ، فيقول : « ولا خير فيما أجيد لفظه ، اذا سخف معناه » . (١) .

وليس من ريب في أن أبا هلال قد خطا بالدرس البلاغي خطوة عريضة في طريق الوضوح والاستقلال . أما ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) ، فقد وضع كتابه « العمدة في صناعة الشعر ونقده » ، الذي كان ، كما يدلّ عليه عنوانه ، مبنيّاً على فن الشعر ، وبيان مزاياه وعيوبه ، ومن هنا زاوج بين النقد والبلاغة ، وقد اتخذ البلاغة التي كانت جملة الكتاب وتفصيله ، طريقا للنقد ، وقد جعلها أبوابا ، كلّ فن من فنونها يندرج تحت باب ، فمنها : باب البلاغة ، وباب الايجاز ، وباب البديع ، وباب المجاز ، وباب الاستعارة ، وباب التمثيل ، وباب التشبيه ، وباب الاشارة ، وباب التجنيس ، وباب الترديد ، وباب المطابقة ، وباب المقابلة ، وباب التسهيم ، وباب الالتفات ، وباب المبالغة .

ونحن واجدون على هذا التبويب :

١ ـــ أن دراسة البلاغة علماً واحداً لم تفض بعد الى التقسيم الثلاثي الذي آل اليه عند المتأخرين . (٢)

٢ ـــ والمزج بين البلاغة والنقد وعدّهما فنا واحداً .

٣ ـــ وان الدرس البلاغي ما يزال ذا طابع أدبي ، ولعل ذلك كان طابع المغاربة الذين لم يتأثروا بمذهب أهل الكلام عند المشارقة .

غير ان هذا لا ينفي تأثر ابن رشيق بارسطو في تعريف البلاغة ، وبقدامة وبكثير من البلاغيين ، خاصة علي بن عيسى الرمّاني في متابعته اياه في تقسيم البلاغة الى ايجاز ، واستعارة ، وتشبيه ، وبيان ، ونظم ، وتصرّف ، ومشاكلة . (٣)

ويعدّ كتاب « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) ، حلقة

---

(١) نفسه ٦٠

(٢) ينظر : ابن رشيق القيرواني لمحمد سلامة يوسف ٥١ فما بعدها ، فقد وزّع الابواب المذكورة آنفا على اساس التقسيم الثلاثي .

(٣) ينظر : مقدمة محمد بن تاويت الطنجي لدلائل الاعجاز ٣٠ . وذكر محمد سلامة يوسف في (ابن رشيق القيرواني ٢١٦ فما بعدها) تأثره بابن قتيبة وقدامة والرمّاني وابن المعتز والقاضي الجرجاني .

متطورة في الدرس البلاغي ، إذ فصل بين الفصاحة والبلاغة ، فجعل الفصاحة من نعت الالفاظ وجرسها ، والبلاغة من نعت اللفظ والمعنى في المفردات والتراكيب (١) .

من هنا تكلم ابن سنان على الحروف ، أصواتها ، ومخارجها ، وأوصافها ، ثم بيان أهل اللغة ، واقسام الحروف ، وذكر شروط فصاحة اللفظة ، وهي :

١ ــ أن تكون من حروف متباعدة المخارج .
٢ ــ وأن يكون لتأليفها حسن ومزية .
٣ ــ وألّا تكون الكلمة متوعرة وحشية .
٤ ــ ألا تكون ساقطة عامية .
٥ ــ وان تكون جارية على العرف العربي ، غير شاذة .
٦ ــ وألا يعبّر بها عن معنى يكره ذكره .
٧ ــ وأن تكون معتدلة الحروف ، أي : غير كثيرة .
٨ ــ وأن تكون مصغّرة عند التعبير عن معنى لطيف .

ثم تحدث عن فصاحة التراكيب ، وجعل من شرائطها :

١ ــ الاشتمال على حسن الاستعارة .
٢ ــ وعدم وقوع الكلمة حشوا .
٣ ــ وألا يعبّر عن المدح بألفاظ غير ألفاظه ، ولا عن الذمّ بغير ألفاظه .
٤ ــ وان تشتمل على حسن الكناية .

وقد تطرق في اثناء تفصيله الكلام الى السجع والازدواج واللف والنشر والترصيع ، وهي من فنون البديع ونبّه على الاقتصاد فيها ، وانتقل الى التمثيل والتشبيه .

وقد عرض لمذاهب المتقدمين في مسائل البلاغة ، والتفريق بين المنظوم والمنثور . وانتهى الى القول ب (الصرفة) في اعجاز البلاغة في القرآن الكريم .

وقد وقف عند مذاهب الكلاميين ، وعالجها بطريقة تنأى عن المنهج الادبي ، وكانت دراسته ارهاصاً لهذا الجفاف الذي آل اليه الدرس البلاغي على يد السكّاكي ومن تلاه فيما بعد .

غير ان بعض الباحثين يرى أن « سر الفصاحة » من « أنفس كتب البلاغة

---

(١) سر الفصاحة ٦٠

والنقد التي خلفها القرن الخامس ، لأنه جمع بين التعليل والتحليل والعلم والذوق . [1]

وهكذا تضافرت نظرات النقاد الاوائل في تحديد الاصول البلاغية ، وانضاج الدرس البلاغي .

وحين تصل الدراسات البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) تتحوّل الملاحظ والاشارات البلاغية المتناثرة الى علم واضح المعالم خاصة في كتابه « اسرار البلاغة » ، وإذا كان مدار الاسرار موضوعات ما يسمى بـ (علم البيان) فإنّ له بإزاء ذلك بحوثاً في المعاني والبديع .

وقد ذهب باحثون الى انه سلك في مباحثه سبيل الكلاميين [2] ، وذهب غيرهم الى تأثره بالفلاسفة ، فقد اتصل بأرسطو عن طريق ابن سينا [3] ، وآثر غير هؤلاء واولئك ان يسلكوه في الذين نحوا بالدرس البلاغي منحى أدبياً . [4]
ولا حاجة بنا الى تفصيل القول في « أسرار البلاغة » فاسمه يدلّ على محتواه ، لكنه وقف طويلا في باب المجاز ، وجعله أهم من الاستعارة ، ثم ، اكتشف المجاز العقلي [5] .

غير انه لم يقصر كتابه على فنون البلاغة بل عرّج على كثير من المسائل النقدية ، كالسرقة ، والمعاني الحقيقية والتخييلية [6] .

ويكفي ان نشير الى ان عبد القاهر كان يرى أن الكلام البليغ يفقد بلاغته بكثرة الاستعمال .

وحين يعرض عبد القاهر لقضية اللفظ والمعنى ، يكون جوابا قويا للعسكري في احتفاله باللفظ ، ونجد صدى ذلك عنيفا في كتابه « دلائل الاعجاز » ، ليدلّ على المجاز القرآني بالنظم ، وهو « توخي معاني النحو واحكامه بين الكلم » [7] ، واذا كان لنظرية النظم جذور تمتد الى السابقين ، فإنّ عبق القاهر قد أحكم دراستها ، وتطويرها ، وإيضاح فحواها يرفده في ذلك طلبة النحو ، ولذا كان للتأليف النحوي في الكلام من حيث بناؤها اكبر الاثر في تشقيق

---

(١) مناهج بلاغية ١٣٧
(٢) مقدمة محمد بن تاويت الطنجي ٣٨
(٣) نفسه ٣٧
(٤) مناهج بلاغيّة ١١١
(٥) مقدمة الطنجي ٣٧ ، وينظر : عبد القاهر الجرجاني لاحمد احمد بدوي ٣٠٠
(٦) نفسه ٣٩
(٧) مناهج بلاغيّة ١١٢

المعاني ، وبلغ بالنظرية المدى الذي بلغته الدراسات اللغوية الحديثة خاصة عند (دي سوسير) .

وليس من ريب في ان عبد القادر مؤصل علم البلاغة ، وواضع حدوده ومقاييسه .

لقد انتهى الدرس البلاغي عند الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) درسا تطبيقيا في تفسير القرآن الكريم في « الكشاف » ، وقد نثر فيه مصطلحات البلاغة وقضاياها ، متّخذا ذلك متّكأ لتفسيره الفريد ، ومن ثمة زعم ابن خلدون ان تفسيره « مبني على هذا الفن ، وهو أصله » [١] ،وقد كانت عناية الزمخشري بالبيان والمعاني عناية فائقة ، غير انه لم يول البديع اهتمامه .

وعلى هذا نجد الزمخشري يميل الى تطوير نظرية النظم ، والقول بأن اعجاز القرآن يؤول الى نظمة ، وجرس ألفاظه ، ودقة معانيه [٢] .

ولقد صنّف الزمخشري معجمه « أساس البلاغة » وقفا على ذكر المعاني المجازية ، وله رسالة « الدر الدائر المنتخب من كنايات واستعارات وتشبيهات العرب » ، تحدّث فيها عن التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، والالتفات ، وتكرار الكلام ، والتقديم والتأخير ، والعام والخاص ، وحديثه فيها يعتمد على الامثلة لاسوق الحدود والتعريفات [٣] . وهذا دليل على اتجاهه الادبي ، لا المنطقي ، إلّا حين يعرض للنظم النحوي .

ولعل منطلق الزمخشري في منحاه البلاغي هو اعتزاله .

غير ان الدرس البلاغي قد غاض ماؤه ، وجفّ رواؤه بعد عبد القاهر والزمخشري ، ومهما يقل من التماسهما أسلوب الكلاميين ، فهما لم يغرقا اغراق طائفة الناهجين نهج المشارقة : السكّاكي ومن نسج على منواله ، الذين آلوا بالدرس البلاغي منطقاً وعقلًا وأحكاماً وقوانين جامدة ، كما سيأتي .

ولقد صار السكّاكي (ت ٦٢٣ هـ أو ٦٢٦ هـ) منطلق الدارسين التالين في كتابه « مفتاح العلوم » غير أنه يعدّ مؤصّل المدرسة التي تميل الى تحكيم المنطق والعقل في قضايا البلاغة ، وقد بالغ في صرامة المقاييس والحدود ، حتى لقد آل الدرس البلاغي عندهالى مجموعة من القواعد الجافة التي لا رواء فيها ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٥٢ عن مناهج بلاغية ٥٩

(٢) ينظر / النظم القرآني في كشّاف الزمخشري

(٣) مناهج بلاغيّة ٦٢ .

ومن ثمة اطلق بعض الدارسين المحدثين على هذا المنهج اسم « المنهج التقنيني المنطقي » [1] .

وعلى هذا جرى اكثر البلاغيين الذين استقوا من معينة : الخطيب القزويني ، وشرّاح تلخيصه ، الذين ينتسبون الى مدرسة المشارقة المنطقية ، وان كان عدد منهم من المصريين أو الشاميين .

ولهذه المدرسة بدايات بدأها قدامة بن جعفر ، كما مرّ ، ثم نمت وترعرعت عند فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) بتلخيصه « أسرار البلاغة » ، و « دلائل الاعجاز » في كتابه « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » ، ووضعهما في جملة من القواعد والاصول معيدا ترتيبهما ترتيباً مبنياً على المنطق ، وقد ذهب بصنيعه هذا بالنزعة الادبية التي كانت تتخلّل احيانا مباحث عبد القاهر في كتابيه [2] . حتى أحكم بناءها السكّاكي بالقوانين والحدود وتغليب المقاييس المنطقية .

واذا كان هذا الاتجاه المنطقي الكلامي قد هيمن على الدرس البلاغي ، فقد أضاف اليه حازم القرطاجني شيئا كثيراً من الفلسفة اليونانية ومنطق أرسطو ، وعلى ذلك كان نسيج من كتابه « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » .

ثم كتب لمفتاح العلوم ان يشيع في الآفاق ، وينكّب عليه دارسو البلاغة بالتلخيص او بالشرح ، خاصة القسم الثالث . فلخّصه بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦ هـ) في كتاب « المصباح في علم المعاني والبيان والبديع » ، ثم القزويني (ت ٧٣٩ هـ) في « التلخيص » الذي تجاوزت شهرته « المفتاح » وقد رأى القزويني نفسه اغلاق العبارة في كتابه ، فعاد اليه يشرحه في « الايضاح » .

ومهما يكن من شيء ، فقد عاد القزويني الى ترتيب موضوعات البلاغة عند السكّاكي ، وانتهت عنده الى الغاية التي سار عليها دارسو البلاغة الى الآن .

وقد توالت الشروح على تلخيص القزويني ، منها :

١ ــ عروس الافراح للسبكي (ت ٧٧٣ هـ) .

٢ ــ والمطوّل لسعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢ هـ) .

٣ ــ والاطول لعصام الدين الاسفراييني (ت ٩٥١ هـ) .

---

(١) البلاغة العربية: تاريخها ، مصادرها . نشأتها ، للدكتور علي عشرى زايد ٢٠٥ فما بعدها .

(٢) ينظر : مناهج بلاغيّة ٢٤٤ .

ثم وضع ابن يعقوب المغربي (ت ١١١٠ هـ) شرحا على مختصر التفتازاني ، ترسّم فيه خطاه . [١]

غير أنّ هذا التيار الكلامي المنطقي لم يتفرد في ميدان الدرس البلاغي ، اذ كان ثمة بلاغيون آخرون نحوا منحى آخر ، يمثله ضياء الدين بن الاثير الجزري (ت ٦٣٧ هـ) الذي زعموا أنّه اتجه بالدرس البلاغي اتجاها أدبياً ، وعُدّ رأس المدرسة الادبية التي ينتسب اليها كثير من بلاغيي مصر والشام ، وهي المدرسة التي كانت تنزع منزعا ذوقيا فنيا في معالجة قضايا البلاغة .

وابن الاثير ، قد أفاد ، من غير شك من كتب المتقدّمين ، أخذ منها ، واحاط بها ، واستوعبها ولم يقصر الاخذ على كتب النقد والبلاغة ، بل أفاد من النحاة والمفسّرين ، وقد عوّل بوجه خاص على كتابي « الموازنة » للآمدي ، و « سر الفصاحة » لابن سنان ، حتى لتكاد صورة كتابه » المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر تطابق صورة « سرّ الفصاحة » الّا يسيرا مما يتصل بتقديم ابواب وتأخير أخرى ، او في تفصيل في موضوع ، وايجاز في غيره .

وكان ابن الأثير « ممّن اتضحت في مؤلفاتهم صنعة الكتابة التي كان لها أثر في ذلك العصر أهمية عظيمة » . [٢] .

ومن ثمة عدّ ابن الاثير في كتبه « المثل السائر » و « الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور » و « الاستدراك » ناقدا كبيرا وبلاغيا ذوّاقة . [٣]

واذا كان اسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) قد سبق ابن الاثير في وضع كتابه « البديع في نقد الشعر » فقد تلاه ابن ابي الاصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) في كتابيه : « بديع القرآن » و « تحرير التحبير » .

أما دعوى أنّ كمال الدين الزملكاني (ت ٦٥١ هـ) واحد من البلاغيين الذين يسلكهم الدارسون في رحال هذا الاتجاه ، فهو امر لا يمكن الاطمئنان اليه ، لأن كتابيه « التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن » ، و « البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن » ، لا يعدوان أن يكونا صورة أخرى من « دلائل الاعجاز » مع شيء من التنسيق والتبويب ، تسودهما روح عبد

---

(١) ينظر : القزويني وشروح التلخيص ص ١٨٦ ــ ١٨٧
ومناهج بلاغيّة ٢٨٨ ــ ٣١٥
والبلاغة عند السكّاكي ٣٦٩ فما بعدها
ومقدمة في تاريخ البلاغة العربية ٥٥ ــ ٦٢
(٢) مناهج بلاغيّة ١٩٦ ، ١٩٧
(٣) نفسه ١٩٧

القاهر في فصول كتابيه التي تتصل بالنظم النحوي .

غير انه مع ذلك ، كانت له آراء خاصة ، وناقدة ، تنبىء بوضوح شخصيته وتميّزها في أمور شتى[1] .

وقد تأثر به وأفاد منه العلوي (ت ٧٤٩ هـ) صاحب كتاب « الطراز المتضمن لاسرار البلاغة ، وعلوم حقائق الاعجاز » ، وقد كان عوّل على اربعة كتب هي : المثل السائر لابن الاثير ، والتبيان للزملكاني ، ونهاية الايجاز للرازي ، والمصباح في اختصار المفتاح لبدر الدين بن مالك ، وقد أطرى كتابي عبد القاهر ، وان زعم أنه لم يرهما وبهذا كان اسلوبه وسطا ، غير ان تأثره بالاتجاه الكلامي المنطقي كان واضحا .

وحقيقة الامر ان عبد القاهر كان كلاميا في اغلب الجوانب التي عرض فيها لمسائل البلاغة في الدلائل ، غير أنه لم يكن محكوما بالحدود المنطقية التي كانت قوام الدرس البلاغي في مفتاح السكّاكي ومصنفات التالين .[2]

ومهما يكن من شيء ، فان ثقافة العصر هي التي طبعت الدرس البلاغي بالمنطق وعلم الكلام والفلسفة .

ومن هنا ، يصبح من العسير ان نفصل بصراحة بين مناهج البلاغيين ، لأنهم جميعا لم يستطيعوا الفكاك من اسر المنطق وعلم الكلام على تفاوت بينهم في الخضوع لهما ، وعلى تباين في الذوق والاحساس الفني ، خاصة عند المشارقة[3] .

---

(١) ينظر : مقدمة (البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن ٢٩ ، ٣٠) .

(٢) ينبغي التنبيه على أن تأثير الفلسفة في البلاغة كان في جهتين :
١ ـ جهة منطقية او فلسفية عامة .
٢ ـ جهة كلاميّة او فلسفية اسلامية .
اما الجهة الاولى فازاءها قدامه بن جعفر ، وحازم القرطاجي ، واما الثانية فقد وقع تأثيرها سائر الكلاميين والمتفلسفة والمناطقة من دارسي البلاغة ، ويدفعنا هذا الى القول بضعف الأثر اليوناني في البلاغة العربية ، خاصة بواكيرها . وينظر : مناهج تجديد ١٥٠ .

(٣) ولقد حاول بعض المحدثين ان يقسم البلاغيين اصنافا اربعة بناء على اسلوب عرض قضايا البلاغة ومعالجتها ، وجعلها مناهج : المنهج التجميعي ، والمنهج الانطباعي ورائدهما الجاحظ ، والمنهج التحليلي ورائده الرماني ومؤصله عبد القاهر ، والمنهج التقنيني المنطقي ورائده قدامة ومؤصله السكاكي .
ينظر : البلاغة العربية لعلي عشري زايد .

انّ البلاغة العربية قد لقيت عبر تاريخها المزدهر ، رعاية بالغة من لدن دارسي العربية والمفسرين ، غير أنه علق بها عبر مسيرتها شيء من علوم أخرى طرأت على الدراسة الاسلوبية والنقدية فاحالتها عند المتأخرين الى لون من التمحّل والحدود الثقيلة .

ولقد بلغ من ابتعاد الدرس البلاغي عن الاتجاه النقدي والذوقي ، والاسلوبي ، ان انساق الدارسون في الاعصر المتأخرة في التيار التعليمي الذي جرف النحاة وسواهم فراحوا يفيضون شروحهم ، حتى كثرت هذه الشروح والتعليقات والحواشي على مصنفات المتأخرين كثرة غريبة ، بحيث بلغ بعضها مجلّدات ضخاما ، واكتفى بعضها بالتعليقات الموجزة ، ومال بعضها الآخر الى الايجاز والاختصار ، فظهرت على شكل متون منظومة او منثورة يسهل حفظها على الطلاب كمتن (السمرقندية) لأبي القاسم بن بكر الليثي السمرقندي[١] . و (ملحة البيان) لزين الدين المرصفي .

ولعلّ من أسوأ ما لحق الدرس البلاغي ، خاصة البديع من تعسّف المتأخرين أمرين .

الاول : اصطناعهم انواعا من البديع وتسابقهم في زيادتها ، وابتداعها ، والتباهي بالاكثار منها حتى انتهت عند ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧ هـ) في (خزانة الادب) الى اثنين واربعين ومئة نوع .

وثانيهما : هذا النمط من المنظومات التي سميت بالبديعيات وهي « قصائد تتضمّن فنونا بلاغية معظمها في مدح النبي محمد (ص) ومن البحر البسيط ، وعلى روى الميم » [٢] . بدأها صفي الدين الحلّي (ت ٧٥٠ هـ) ، ثم ابن جابر الاندلسي (ت ٧٨٠ هـ) وسرت عدواها في العصور التالية حتى بلغت اربعا واربعين منظومة [٣] .

وهكذا تضافر هذا اللون من التأليف مع الاتجاه المنطقي والكلامي مما دعا الى ان يؤول الدرس البلاغي الى تحجّر في القواعد ، وتحكيم للعقل . [٤] وبقيت الامثلة القديمة هي هي يتداولها اللاحقون عن السابقين في تكرار مملّ لا حياة فيه .

---

(١) مجموع مهمات المتون ٥٨٥ فما بعدها . وينظر : اللغة العربية وعلومها ١٦٨

(٢) مناهج بلاغيّة ٣٢٤

(٣) ينظر: مناهج بلاغيّة ٣٢٤ ، والصبغ البديعي في اللغة العربية . واللغة العربية وعلومها ١٦٩

(٤) ومن هؤلاء الدعاة : محمد عبده ، واحمد حسن الزيات في كتابه «دفاع عن البلاغة» اذ دعا فيه للرجوع الى دراسة الاسلوب دراسة ادبية على نحو ما مضى عليه الأوائل .

انّ ملامح ودعوات تجديدية انسابت من أقلام طائفة من الدارسين اعلاهم صوتا الاستاذ امين الخولي في كتابيه : « فن القول » ، و « مناهج تجديد » [٣] ، بيد ان صوت الخولي وأصواتا اخرى قد تحولت الى همس يسري حييا في هذا العصر ، وظل الدرس البلاغي ، على كثرة ما ألف فيه المحدثون وما سيروا من دعاوى التجديد والتيسير ، مثل صنوه النحو ، أسير التقنين الذي عرفناه عند المتأخرين ، وظلّت بلاغة السكّاكي والقزويني تحتل كتب الدارسين ، وقاعات الدرس في الجامعات .

فهرسة بأهم المصادر والمراجع

١ ــ اخبار النحويين البصريين للسيرافي (٣٦٨ هـ) البابي الحلبي بمصر ١٩٥٥ م .

٢ ــ ادب الكاتب لأبن قتيبة تحقيق محي الدين عبد الحميد/مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٣ م .

٣ ــ اساس البلاغة للزمخشري ــ جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨) مطبعة الشعب القاهرة ١٩٦٠ .

٣م ــ الاستدراك على العين : للزبيدي ــ محمد بن الحسن (ت ٣٧٩ هـ) تحقيق « اغناطيوس روما » ١٨٩٠ .

٤ ــ الاشتقاق : لابن السراج/تحقيق محمد صالح التكريتي/المعارف /بغداد/ ١٩٧٣ م .

٥ ــ الاصول في النحو /لابن السراج/ تحقيق د.عبد الحسين الفتلي /بغداد/ نعمان الاعظمي ١٩٧٤ .

٦ ــ الاضداد للدكتور محمد حسين آل ياسين .

الاضداد /ابن الانباري ، ابو بكر محمد بن القاسم (ت ٣٢٨) تحقيق ابي الفضل ابراهيم /الكويت ١٩٦٠

٧ ــ الاقتراح لجلال الدين السيوطي ، حيدر آباد ١٣٥٩ هـ .

٨ ــ انباه الرواة للقفطي /تحقيق ابي الفضل ابراهيم ، مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٥٠

٩ ــ الايضاح في علل النحو للزجاجي /تحقيق د.مازن المبارك/ مصر عام ١٩٥٩ .

١٠ ــ البرهان في علوم القرآن الزركشي ، تحقيق ابي الفضل البابي الحلبي بمصر ١٩٥٧ م .

١١ ــ بغية الوعاة لجلال الدين السيوطي /تحقيق ابي الفضل ابراهيم مطبعة الحلبي ١٩٦٤ م .

١٢ ــ البلاغة العربية ، تاريخها ومصادرها د.علي عشري زابد .

١٣ ــ البلاغة العربية : د.احمد مطلوب .

١٤ ــ البيان والتبين للجاحظ ، عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ) تحقيق عبد السلام هارون /مكتبة الجاحظ مصر ١٩٤٨

١٥ ــ تاج العروس للزبيدي ، محمد مرتضى (ت ١٢٠٥ هـ) المطبعة الخيرية في عشرة اجزاء .
١٦ ــ تاريخ الأدب العربي ، ثلاثة أجزاء /ترجمة عبد الحليم النجار القاهرة ١٩٥٩ ــ ١٩٦٢ .
١٧ ــ تاريخ علوم اللغة : طه الرواي .
١٨ ــ تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان القاهرة ١٩٥٧ .
١٩ ــ تاريخ الأدب العربي : للزيات ــ مصر .
٢٠ ــ تاريخ اللغات السامية /اسرائيل ولفتن ، مطبعة الاعتماد مصر ١٩٢٩ .
٢١ ــ التكمله لابي علي الفارسي /تحقيق : كاظم بحر المرجان/ جامعة القاهرة .
٢٢ ــ التنبيه على حدوث التصحيف (٣٧٧ هـ) لحمزة الاصفهاني /تحقيق محمد اسعد طلس دمشق ١٩٦٨ .

٢٣ ــ تهذيب تاريخ ابن عساكر لابن عساكر تحقيق صلاح الدين المنجد .
٢٤ ــ تهذيب اللغة للأزهري ــ محمد بن احمد (٣٧٠ هـ) مجموعة من المحققين خمسة عشر جزءا ــ القاهرة . وجزء بتحقيق الدكتور رشيد العبيدي .
٢٥ ــ الجيم لأبي عمرو الشيباني اسحاق بن مرار (حوالي ٢١٠ هـ) تحقيق ابراهيم الايباري .
٢٦ ــ الحجة لأبي علي الفارسي تحقيق النجدي والنجار وشلبي دار الكاتب العربي بمصر .
٢٧ ــ الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ــ بيروت ١٩٦٩
٢٨ ــ الخصائص لابن جني /ثلاثة اجزاء/ تحقيق محمد على النجار مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٥٢ .
٢٩ ــ الخليل احمد الفراهيدي د.مهدي المخزومي ، مطبعة الزهراء بغداد ١٩٦٠ م .
٣٠ ــ الدرس النحوي في بغداد ــ الدكتور مهدي المخزومي ــ بغداد .
٣١ ــ الديباج المذهب لابن فرحون المالكي (ن ٧٩٩ هـ) مصر عام ١٣٥١ هـ .
٣٢ ــ الرد على النحاة /لابن مضاء/ تحقيق الدكتور شوقي ضيف .
٣٣ ــ الرماني النحوي الدكتور مازن المبارك مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٥ .

٣٤ ـ الزجاجي حياته وآثاره /الدكتور مازن المبارك
٣٥ ـ ابو زكريا الفراء الدكتور مكي الانصاري القاهرة ١٩٦٤ .
٣٦ ـ سر الفصاحة الخفاجي عبد الله بن محمد (ت ٤٦٦ هـ) تصحيح الصعيدي /مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ١٩٦٩ م .
٣٧ ـ سيبويه امام النحاة الأستاذ علي النجدي ناصف ، لجنة البيان العربي ـ القاهرة .
٣٨ ـ شرح الكافية للرضي الاستربادي : الاستانة : ١٢٧٥ هـ .
٣٩ ـ شرح ما يقع فيه التصحيف /العسكري ، الحسن بن عبد الله (ت ٣٨٢ هـ) تحقيق عبد العزيز احمد بمصر ١٩٦٣ .
٤٠ ـ الصحاح للجوهري اسماعيل بن حماد (ت ٣٩٨ هـ) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ـ دار الكتاب العربي ـ مصر تم طبعه ١٣٧٧ هـ .
٤١ ـ الصناعتين لأبي هلال العسكري ، تحقيق البجاوي وأبي الفضل البابي الحلبي بمصر ١٩٧١ .
٤٢ ـ ضحى الاسلام /احمد امين القاهرة ١٣٧٥ هـ .
٤٣ ـ طبقات الشعراء لابن المعتز /القاهرة ١٩٦٤ .
٤٤ ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام محمد (ت ٢٣١ هـ) تحقيق محمود محمد شاكر دار المعارف بمصر .
٤٥ ـ طبقات النحويين واللغويين للزبيدي أبي بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩ هـ) تحقيق ابي الفضل /مطبعة الخانجي/ بمصر ١٩٥٤ م .
٤٦ ـ عبقري من البصرة ، الدكتور مهدي المخزومي /نشر وزارة الاعلام العراقية ١٩٧٢ م .
٤٧ ـ ابو عثمان المازني ، د.رشيد عبد الرحمن العبيدي بغداد ١٩٦٩ .
٤٨ ـ ابو علي الفارسي د.عبد الفتاح شلبي مطبعة نهضة مصر ١٣٧٧ هـ .
٤٩ ـ العمدة لابن رشيق القيرواني ، الحسن (ت ٤٥٦ هـ) تحقيق محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٥٥ .
٥٠ ـ العين للخليل لابن احمد (ت ١٧٥ هـ) تحقيق د.عبد الله درويش الجزء الاول بغداد ١٩٦٧ .
٥١ ـ عيون الاخبار لابن قتيبة /القاهرة ١٩٦٣ طبعة دار الكتب المصرية .
٥٢ ـ غريب الحديث لابن قتيبة تحقيق عبد الله الجبوري رسالة دكتوراه .
٥٣ ـ الفائق في غريب الحديث للزمخشري ط الثانية /تحقيق البيجاوي وابي الفضل مطبعة الحلبي ١٩٧١ م

٥٤ ــ الفصيح : لثعلب تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي المطبعة النموذجية ١٩٤٩ م .
٥٥ ــ الفهرست : لابن النديم محمد بن اسحاق (ت اواخر القرن الرابع) طهران .
٥٦ ــ فهرسة : ابن خير الأشبيلي ابو بكر محمد (ت ٥٧٥ هـ) بيروت ١٩٦٢ .
٥٧ ــ في اصول النحو سعيد الافغاني /دمشق ١٣٧٦ هـ .
٥٨ ــ القاموس المحيط للفيروز ابادى /الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٢ م .
٥٩ ــ القوافي للأخفش الاوسط ، تحقيق عزة حسن مديرية احياء التراث القديم دمشق ١٩٧٠ م .
٦١ ــ الكتاب سيبويه ، طبعه بولاق ١٣١٦ تحقيق عبد السلام هارون دار التعليم ١٩٦٦ م ــ ١٩٧٥ م .

٦٢ ــ الكشاف للزمخشري مطبعة مصطفى البابلي الحلبي ١٩٤٨ .
٦٣ ــ كشف الظنوان للخاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ) استنبابول ١٩٤١ م .
٦٤ ــ اللسان لابن منظور محمد بن مكرم الافريقي (ت ٧ هـ) بيروت ١٩٥٥ م ــ ١٩٥٦ م .
٦٥ ــ مجلة مجمع اللغة العربية الاردنية .
٦٦ ــ المحتسب لابن جني جزان تحقيق ناصف والنجار وشلبي القاهرة ١٩٦٦ م .
٦٧ ــ المحكم لابن سيدة /البابي الحلبي بمصر ١٩٥٨ .
٦٨ ــ المحكم في القراءات للداني تحقيق د.عزة حسن /دمشق ١٩٦٠ م .

٦٩ ــ المدارس النحوية الدكتور شوقي ضيف دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م .
٧٠ ــ مدرسة الكوفة الدكتور مهدي المخزومي /مطبعة دار المعارف بغداد ١٩٥٥ م .
٧١ ــ المذكر والمؤنث لابن الانباري تحقيق الدكتور طارق الجنابي .
٧٢ ــ المذكر والمؤنث الفراء يحي بن زياد (ت ٢٠٧ هـ) تحقيق مصطفى الرزقا حلب .

٧٣ ــ مراقبة النحويين لابي الطيب اللغوي تحقيق ابي الفضل ابراهيم مصر ١٩٥٥ م .
٧٤ ــ المزهر للسيوطي تحقيق جاد الولى وآخرين البابي الحلبي بمصر .
٧٥ ــ معاني القرآن للأخفش تحقيق الدكتور عبد الامير الورد .
٧٦ ــ معجم الأدباء لياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) دار المأمون .
٧٧ ــ معجم مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السلام هارون ١٣٦٦ هـ .
٧٨ ــ المعجم العربي الدكتور حسين نصار ط الثانية دار مصر ١٩٦٨ م .
٧٩ ــ مغني اللبيب لابن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد مطبعة دار احياء الكتب العربية .
٨٠ ــ مفتاح العلوم للسكاكي : ابو يعقوب يوسف بن ابي بكر (ت ٦٢٦ هـ) مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٣٧ .
٨١ ــ المقتضب لأبي العباس المبرد (٢٨٦ هـ) . تحقيق عبد الخالق عضيمة منشورات المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ــ القاهرة .


٨٢ ــ المقدمة لابن خلدون . عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) تحقيق علي عبد الواحد وافي ط الثانية ١٩٦٨ م .
٨٣ ــ المنقوص والممدود للفراء تحقيق الميمني . دار المعارف بمصر ١٩٦٧ .
٨٤ ــ المنصف لابن جني تحقيق ابراهيم مصطفى وعبد الله امين /مصر ١٩٥٤ .
٨٥ ــ منهج السالك في الكلام على الفية ابن مالك لابي حيان الأندلسي تحقيق جليزر نيو هاتف ١٩٤٧
٨٦ ــ النحو العربي الدكتور إبراهيم السامرائي /دار الصادق بيروت ١٩٦٨ .
٨٧ ــ نزهة الألباء لابن الانباري عبد الرحمن بن محمد (٥٩٧ هـ) تحقيق د.ابراهيم السامرائي ط الثانية بغداد ١٩٧٠ م .
٨٨ ــ نكت الهميان في نكت العميان للصفدي (ت ٧٦٤ هـ) تحقيق احمد زكي مصر ١٩١١ م .
٨٩ ــ النهاية في غريب الحديث لابن الاثير . مجد الدين المبارك بن محمد (٦٠٦ هـ) تحقيق الواوي والطناحي .
٩٠ ــ جمع الهوامع لجلال الدين السيوطي . عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ) دار المعرفة بيروت .

٩١ ــ الواضح في علم اللغة لأبي بكر الزبيدي الاشبيلي تحقيق امين السيد دار المعارف بمصر ١٩٧٥ .
٩٢ ــ الوافي بالوفيات / الصفدي تحقيق هلموت رتير طهران ١٩٦١ .
٩٣ ــ وفيات الاعيان لابن خلكان شمس الدين احمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) تحقيق احسان عباس دار الثقافة ــ بيروت .
٩٤ ــ يتيمة الدهر للثعالبي تحقيق محي الدين عبد الحميد الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٦ .
٩٥ ــ يونس بن حبيب / طالب عبد الرحمن رسالة ماجستر/جامعة بغداد .

فهرست الموضوعات

الباب الأول : علم النحو




مطابع مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر